مجلة البحث العلمي الإسلامي

مجلة إسلامية علمية محكمة

تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية

ISSN: 2708-1796 (ردمد النسخة المطبوعة)

E-ISSN: 2708-180X (ردمد النسخة الإلكترونية)

السنة التاسعة عشرة – العدد 52 – 30-12-2023م

Volume 19th - issue no. 52 - 30/12/2023

Pages: 349-390 الصفحات: 390-349

مفهوم السعادة في الفقه الإسلامي وعلاقته بمقاصد الشريعة

The Concept of Happiness in Islamic Jurisprudence and its Relation to the Objectives of Sharia

د. رحيل محمد غرايبه

أستاذ مشارك في الجامعة الأردنية – كلية الشريعة
قسم الفقه وأصوله – الفقه وأصوله

Dr. Rahil Muhammad Ghraibeh
Assistant Professor - Jordanian University

Email: r.gharaibeh@ju.edu.jo

اعتمادات

د. رحيل محمد غرايبه
استاذ مشارك في الجامعة الأردنية – كلية الشريعة قسم الفقه وأصوله – الفقه وأصوله
المملكة الأردنية الهاشمية

Dr. Rohail Muhammad Al Garaybeh
Assistant Professor - Jordanian University

مفهوم السعادة في الفقه الإسلامي وعلاقته بمقاصد الشريعة

The Concept of Happiness in Islamic Jurisprudence and its Relation to the Objectives of Sharia

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى بيان مفهوم السعادة في الفقه الإسلامي وأهمية استخدام هذا المفهوم في الدراسات المعاصرة، وتوضيح العلاقة بين مفهوم السعادة ومقاصد الشريعة في الفقه الإسلامي وبيان مرتبة السعادة في درجات الاهتمام المقاصدي وكيفية تحقيقها وتجلية آثارها، وقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الاستقرائي، وتوصلت الدراسة إلى أن السعادة مقصد شرعي عام وأصيل، توثقه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء ويحتل مرتبة متقدمة في تراتبية مقاصد الشريعة، مما يوجب على أصحاب المسؤولية وكل مراكز التوجيه في الدولة السعي لتحقيق سعادة الأفراد والمجتمعات بطريقة منظمة مدعومة بالتشريعات الملزمة.

Abstract

This study aims to clarify the concept of happiness as defined by Islamic scholars، the use of this concept in contemporary studies، the relationship between the concept of happiness and the objectives of Islamic Law (Maqasid al-shari'a) in Islamic jurisprudence (fiqh)، and finally the position of happiness in the hierarchy of the objectives، in terms of ways to achieve it and manifest it.

The study follows the inductive methodology and concludes that happiness is a solid objective of Islamic Law، as proven by the Qur'an، Hadith، and Islamic Jurists، and has a high status in the hierarchical structure of the objectives of Islamic Law. Hence، it is obligated for the people in positions of responsibility and for state-sponsored centers of counsel، to pursue the

happiness of individuals and communities in organized forms supported by binding legislation.

مقدمة

هنـاك اهتمام متزايد في الوقت المعاصر لمفهوم السعادة علـى الصعيد العالمي والدولي، وقـد تصدت مؤسسات الأمم المتحدة لهذا الموضوع، وأصدرت تقريرها السنوي الأول عام ٢٠١٤ الذي تـم بموجبه ترتيب دول العالم بحسب تحقيق السعادة لشعوبها وفق مجموعة معايير معتمدة في هذا السياق منها:

- نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي.
- متوسط عمر الفرد.
- جودة التعليم وجودة الخدمات الصحية التي تقدمها السلطات للجميع.
- الحرية والمشاركة في اتخاذ القرارات.
- غياب الفساد.
- انتشار العدل.
- الدعم الاجتماعي.
- الثقة في الحكومات.

ومعايير أخرى تفصيلية على هذا المنوال.

وهنـا لا بـد من تسليـط الضوء على مفهـوم السعادة في الفقـه الإسلامي، ومقـدار العناية بتحقيقها، وهل تعد السعادة من مقاصد الشريعة؟ حيث أنها لم تذكر بلفظها عندما ذكر الفقهاء المقاصـد المعتبـرة للشريعـة، والضـرورات والحاجيات والتحسينـات، لا عند القدمـاء ولا عند المحدثين بشكل صريح.

مشكلة البحث :

- ما معنى السعادة وما هو مضمونها عند العلماء؟
- هل السعادة تعد من مقاصد الشريعة في الفقه الإسلامي؟
- مـا مدى أهمية السعادة في حياة الأفـراد والمجتمعات، وما هي أهم المؤشرات والمعايير التي تحقق السعادة في المجتمعات من منظور فقهي؟
- ما هي الأدلة والقواعد الشرعية التي تنهض بمقصد السعادة في الفقه الإسلامي؟
- كيف نحقق السعادة وكيف نصل إليها؟ وما هي المنغصات التي تقلل سعادة السعادة حتى يمكن تجنبها.

المبحث الأول

مفهوم السعادة ومعناها في اللغة والاصطلاح

لا بد من الوقوف على مفهوم السعادة ومعانيها في اللغة ومحاولة الاقتراب من المعنى الاصطلاحي الذي يمس جوهرها وحقيقتها.

المطلب الأول : السعادة في اللغة

جاء في لسان العرب لابن منظور : أن السعادة مشتقة من الأصل الثلاثي «سَعَدَ، سَعِدَ،..» ويسعد سعداً وسعادة فهو سعيد والجمع سعداء.

والسعد: اليُمن، وهو نقيض النحس، والسعادة خلاف الشقاوة، والسعيد نقيض الشقي.

والسعد (بالضم): الطيب، والإسعاد : المعونة.

ولبيك وسعديك: أي إسعاداً لك بعد إسعاد.

السواعد : مجاري الماء إلى النهر والبحر.

والسعدان: نبات ذو شوك، ومنبته سهول الأرض وهو من أطيب مراعي الإبل.

ساعد القوم: رئيسهم، وساعدا الإنسان : عضداه، وساعدا الطائر : جناحاه[1].

وجاء في القاموس المحيط :

السعادة : الفرح والابتهاج، وكل ما يدخل الفرح والبهجة على النفس.

والسعد : التوفيق.

وسعد الشخص: أحس بالرضا والفرح والارتياح.

وتحية العرب : أسعد الله صباحكم ومساءكم: الدعاء لكم بالراحة والرضا والبركة.

وسعد السعود: المرتبة الرابعة والعشرون من منازل القمر

صاحب السعادة : كلمة تعظيم وإجلال.

سواعد النهر أو البحر : روافده وشعابه.

وجاء في مقاييس اللغة: السين والعين والدال أصل يدل على خير وسرور، خلاف النحس. فالسعد: اليمن في الأمر[2].

وعرفها الأصفهاني بتعريف بديع بقوله: معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير،

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، باب الدال فصل السين.ج١ ص٣٩٦

(٢) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة مادة سعد.

ويضاده الشقاوة[1].

ويكثر العرب من اشتقاق الأسماء من لفظ سعد: سعد وسعيد ومسعود وأسعد وسعادة وسعيدان ومسعد ومسعدة وسعاد وسعدي[2].

كما ربط العرب أسماء المواسم المطرية والشتاء بأسماء مشتقة من السعد، فعندهم سعد الذابح، وسعد السعود، وسعد بلع، وسعد الخبايا، وذهب العرب إلى ذلك من باب التفاؤل لأن الشتاء مرتبط بمعاني الخير والنماء والبركة وسعة الرزق.

ويلحظ من متابعة الجذور اللغوية لكلمة السعادة أنها تعود إلى عدة مسالك:

- مسلك الرضا والبهجة والشعور النفسي بالغبطة.
- مسلك الإشباع القائم على توافر الحاجات الأساسية والقوت والغذاء والمراعي.
- مسلك الارتواء القائم على توافر الماء والشتاء والمواسم المطرية.
- مسلك التعاون وتقديم الخدمة للناس وتسهيل أمور الحياة.

والمعنى اللغوي يقودنا إلى المعنى الاصطلاحي ويقربنا من حقيقة استخدام هذا اللفظ في الحياة، ولذلك هناك تقارب كبير بين المعاني اللغوية والمعنى الاصطلاحي للسعادة.

ومن الغريب جداً ما قاله أحد المؤلفين عن مدى احتواء اللغة العربية على مصطلحات متباينة تدل على ظروف السعادة، حيث يقول: أما في اللغة العربية فلا توجد محددات دقيقة للدوال التي تشير إلى حالة السعادة بمختلف درجاتها، فقد اهتم العرب بتضاد الألفاظ وجرسها أكثر من اهتمامهم بدقة الاستعمال والتعبير المناسب عن الأوضاع التي تصفها اللغة[3].

وهذا الكلام فضلاً عن كونه انطباعاً ذاتياً ولا قيامه على دراسات علمية معتبرة ولا على إدراك لطبيعة اللغة العربية واتساعها[4] وما تختزنه من طاقات تتمثل في الترادف والاشترك والتضاد يتناقض كفاحاً من طبيعة اللغة العربية التي لم تكن مجرد جرس صوتياً أو تضاد لفظي.

يقول صبحي الصالح في كتابه دراسات في فقه اللغة: حين نصف العربية بسعة التعبير، وكثرة المفردات، وتنوع الدلالات، وحين نتجرأ أكثر من هذا فنزعم أن لغتنا في هذا الباب أوسع اللغات ثروة، وأغناها في أصول الكلمات الدوال على معانٍ متشعبة، قديمة وحديثة -جدير بنا أن نذكر أن اللغات جميعًا، دون استثناء، تزداد ثروتها وتبلغ مفرداتها من الكثرة حدًّا لا نهاية له إذا كتب لها من شروط النماء والحياة والخلود ما كتب للعربية، فقد أتيح للغة القرآن من الظروف

(١) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ص ٤١٠.

(٢) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، مادة سعد.

(٣) العجمي: خطاب السعادة ؛ المصادر والآليات والتداخلات ص٢٣.

(٤) يقول ابن فارس: وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟ هذا ما لا خفاء به على ذي نهية. الصاحبي في فقه اللغة العربية، ص١٩.

والعوامـل ما وسع من طرائق استعمالها، وأساليب اشتقاقها، وتنوع لهجاتها، فانطوت من هذا كله على محصول لغوي، لا نظير له في لغات العالم[1].

المطلب الثاني : المعنى الاصطلاحي للسعادة

يبـدو أن تحديد معنـى منضبط للسعادة أمر عسيـر، وتكتنفه كثير مـن الصعوبات، وسبب ذلـك يعود إلى التفاوت الكبير بين البشر في الثقافة والفكر والعقائد، وكذلك التباين العظيم بين الأفـراد في درجـة الإحساس بالسعادة وفي النظـرة إلى الحياة، بالإضافة إلـى اختلاف الأحوال والظروف ومقتضيـات الواقع المعيشي بين الشعوب والأمم وبين الأفراد كذلك في الشعب الواحد والمكان الواحد.

فالذين يتعرضون للاحتلال والظلم يرون أن السعادة تكمن في التحرر وزوال الاحتلال ورفع الظم.

والذيـن يقبعون تحت نير الاستبداد والحكم الفردي المطلق يـرون أن السعادة تتمثل بزوال الاستبداد وإرساء الحكم الديمقراطي الرشيد.

أمـا المرضـى والمصابون بالأوبئة والاعتلال الصحي يـرون أن الأولوية في تحقيق السعادة تتمثل بزوال المعاناة من الأمراض وتحقيق الشفاء والتمتع بالصحة والمعافاة، والتغلب على العجز وسد النقص.

الفقـراء والمعوزون يـرون أن السعادة تتم بتوفيـر المال الذي يكفيهم ويلبـي احتياجاتهم، والتخلص من حالة الضيق والبؤس والوصول إلى حالة الاستغناء عن الحاجة إلى الآخرين.

المؤمنون وأهل الفضيلة يرون أن السعادة تأتي من خلال الإيمان والتمسك بالأخلاق والقيم ونشـر قيم الفضيلـة وشيوع الأعراف الحسنة والتعامل الحسن بين الأفراد، وفي هذا يقول أرسطو طاليس: الحياة السعيدة هي الحياة المطالقة للفضيلة[2].

العاملـون فـي حقـول العلم والمعرفـة يرون السعـادة بتسهيـل سبل العلم مـن تأمين طرق الحصول على المعرفة ودعم البحث العلمي وحركة الاكتشافات العلمية.

وقد يتفاوت الأفراد بدرجة الإحساس بالسعادة في الأسرة الواحدة والبلد الواحد والجماعة الواحدة، بحسب ما يحمل كل فرد من أفكار ورؤى وفلسفات للحياة والواقع المحيط وبحسب حظه من العلم والمعرفة.

ولذلك قال المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ..... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

(١) صبحي الصالح، كتابه دراسات في فقه اللغة ص٢٩٢.

(٢) أرسطو طاليس ، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ص٣٥٢.

وقد ذكر الغزالي العديد من الأمثلة على اختلاف الناس في مفهوم السعادة، فمن الناس من يـرى السعادة في الأكل والشرب وقضاء الشهوة ومنهم من يراها في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز، ومنهم من يراها في الجاه والكرامة بين الناس ومنهم من رأى أن السعادة في قطع الشهوة والغضب ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم حتى هلك بعضهم بشدة الرياضة[١]، ومن قبله ذكر الفارابي الشيء ذاته[٢].

وهـذه السعـادة لا تنال إلا بثلاث وسائـل في الدنيا وهـي الفضائل النفسيـة كالعلم وحسن الخلق والفضائل البدنية كالصحة والسلامة والفضائل الخارجة عن البدن كالمال وسائر الأسباب وأعلاها النفسية ثم البدنية ثم الخارجة[٣].

وأعلاهـا وأشرفها السعادة الأخروية وإيَّاها قصد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾[٤]؛ لأنها سعادة دائمة أبدية جمعت بين الملذات الحسية والمعنوية.

ومـن هنا سوف نجـد صعوبة بالغة في تعريف السعادة على وجـه متفق عليه وأن هناك عدة مذاهـب ومدارس مختلفة في محاولة تعريف السعادة، وسوف نقف على عدة تعريفات من وجهات نظر مختلفة؛ لذلك ينسب لأرسطو قوله: ما هو أرقى خير يمكن أن يبلغه المرء بجهده؟ يتفق عامة الناس وصفوتهم على أنه السعادة؛ ولكنهم يختلفون حتى في تحديد كنهها.

أولاً : السعادة عند علماء النفس:

علماء النفس يرون أن السعادة هي عبارة عن انفعال نفسي وشعور داخلي بالرضا، وفي هذا السياق يرى (مايكل ارجايل) :- «أن السعادة تعرف بوصفها انعكاساً لدرجة الرضا عن الحياة أو بوصفها انعكاساً لمعدلات تكرار الانفعالات السارة[٥]» .

يـرى مارتـن سيلجمان : أن السعادة تتحقق بتوافر ثلاثة عناصر في الحياة : الجدّة (الحياة المشغولة بالالتزامات)، والمتعة (الحياة السارة)، والحياة ذات المعنى أي أن يستخدم الفرد قواه وملكاته لخدمة شيء ما يؤمن به ويرى أنه أكبر من ذاته[٦].

---

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين ج٣ ص ٢٣٠.

(٢) يقول الفارابي: إن السعادة هي غاية ما يتشوقها كل إنسان. رسالة التنبيه إلى سبيل السعادة ،تحقيق سحبان خليفات، ص١٨٠.

(٣) الغزالي، إحياء علوم الدين ج٣ ص ٢٣٥.

(٤) الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة،ص ١٠٦.

(٥) الدائلي ، زكي: السعادة وعلاقتها بنوع التخصص الدراسي، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد :٢٨، العدد ٣١، ٢٠٢٠م.

(٦) سعاد ياسين الرباعي ، الشعور بالسعادة و وعلاقته بالعوامل الخمسة الكبرى للشخصية لدى عينة من طلبة جامعة دمشق، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في علم النفس التربوي،جـامعـة دمشـق ٢٠١٣م، ص٤١.

ثانياً السعادة عند الفلاسفة :

ينسب إلى الفلاسفة اليونانيين الاهتمام بالسعادة ومحاولة الوقوف على المعنى الحقيقي لها.

فالسعادة في نظر أرسطو هي الغرض النهائي للوجود الإنساني، والسعادة هي اكتمال الطبيعة البشرية واكتساب الشخصية الأخلاقية[١].

ويتفق أفلاطون وسقراط بأن السعادة يصنعها الإنسان بنفسه وهي تمثل قوته الداخلية فهي ليست منحة أو هبة من الآخرين، ولذلك لا تكمن السعادة في الحصول على المزيد وإنما بتنمية القدرة الذاتية على الاستمتاع بالقليل[٢].

ويمكن تلخيص المعنى السابق بالقول : نحن لا نولد سعداء وإنما نصبح كذلك.

وينسب إلى فريدريك نيتشه قوله: السعادة هي الشعور بالقوة على تحقيق ما نريد، ويصبح الإنسان سعيداً عندما يسترد إرادته.

ويقول : السعادة الإحساس بتنامي القوة، والتغلب على المقاومة.

كونفوشيوس : السعادة تتمثل بإدراك الناس حقيقة الارتباط القائم بين مشاعرهم وأفكارهم وسلوكياتهم ومن خلال بحثهم عن الفضائل.

بمعنى القدرة على تحقيق التناسق والانسجام بين الفكر والمشاعر والسلوك لتكون على طريق واحد، وأن يكون سلوك المرء ومشاعره وفقاً لما يمليه عليه عقله.

وهناك معنى آخر التفت إليه (سبينوزا) عندما قال السعادة هي الغبطة التي تدركها حينما تتحرر من عبودية الأهواء ومن الخرافات والأحكام المسبقة[٣].

وهنا إشارة إلى المعايير التي ينبغي أن يدركها الإنسان أثناء بحثه عن السعادة والرضا، بمعنى أن لا يكون أسيراً للهوى المريض، ولا تسيطر عليه الخرافات المتوارثة التي تغيب العقل وكذلك البعد عن المواقف المسبقة التي لا تستند إلى منهج علمي سليم.

ويقترب من هذا المعنى الفلاسفة المتصوفون الذين ينظرون إلى السعادة أنها تتعدى حدود إشباع الحاجات المادية وجمع المال والوصول إلى المغانم الدنيوية، وإنما تتجلى السعادة في الصفاء النفسي والنقاء الروحي وجمال المعاني الخفية التي تحقق السعادة الحقيقية، امتثالاً لقول الشاعر.

---

(١) يالجن: علم الأخلاق الإسلامية،ص ٦٢.

(٢) أرسطو طاليس ، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ص٣٦٣.

(3) 84%D8%B3%%8A_%D8%A7%D9%87%D9%85%D8%A7_%D9%https://mawdoo3.com/%D9 %8A%D9%82%D9%84%D8%AD%D9%D8%B9%D8%A7%D8%AF%D8%A9_%D8%A7%D9 .8A%D8%A9%82%D9

ولست أرى السعادة جمع مال..... ولكن النقي هو السعيدُ

ولذلك يميلون إلى أن جوهر السعادة يتجلى بالحرية والوئام وحسن الأخلاق، حيث أن التصوف يقوم على فهم تخليص الإنسان من الغرور والإعجاب بالنفس والخروج من هذا العالم المتغير المحدود زماناً ومكاناً إلى العالم المطلق والسعادة المطلقة.

والسعادة المطلقة تتحقق للإنسان عندما يخرج من قصور ذاته وعالمه المحدود إلى ذلك المطلق اللامحدود وإلى عالم الكمال[١].

وينسب إلى (توما الأكويني) قوله : السعادة البشرية التامة تكمن في رؤية الجوهر الإلهي[٢].

وهذا المعنى يقترب من تعريف ابن سينا الذي ورد سابقاً، وما حاول شرحه الإمام الغزالي عندما قال : الكشف هو نور ينبعث من الباطن ليضيء طريق الإنسان من خلال الرياضة الروحية واللجوء إلى الله وهذا النور هو المعرفة والمعرفة تقود إلى الفضائل، والفضائل تقود إلى السعادة الداخلية[٣].

ثالثاً: تعريف السعادة عند علماء الاجتماع

علماء الاجتماع يرون أن السعادة ليست فردية، وإنما تتحقق عبر الجماعة لأن الفرد مهما استطاع أن يحقق من إشباع الحاجات وإنجاز الطموحات على صعيده الفردي فلن يشعر بالسعادة وهو يعيش في مجتمع لا يتقبله، ولا يجد منه الدعم والمساندة والتعاون.

ولذلك فهم يذهبون إلى القول بأن السعادة تتمثل بالمشاعر الإيجابية الناتجة عن التفاعل الاجتماعي مثل الزواج والصداقة والجوار وزملاء العمل وسكان الحي وأبناء العشيرة، ومن خلال التعاون المثمر على تحقيق المصالح المشتركة ومواجهة العوائق والاشكالات التي تهدد الجماعة.

بمعنى أن السعادة تتناسب مع مقدار الدعم الذي تقدمه شبكات العلاقات الاجتماعية للفرد[٤].

وقد عبر عن هذا المعنى كثيرون من خلال دراسات ميدانية، ومن خلال الاستناد إلى التجارب الشخصية المتكررة، أو بحسب الثقافة المجتمعية السائدة، فهناك كثيرون يجدون سعادتهم من خلال المشاركة الجماعية في الحفلات وتناول الطعام والشراب والرحلات الجماعية، وبعضهم يشعر بالتعاسة والملل من الوحدة والانعزالية، وهناك نفر من الناس يجد السعادة في القدرة على إسعاد الآخرين، وتقديم المساعدة للمحتاجين وهو يمثل البعد الاجتماعي في معنى السعادة

(١) هيام مهدي سلامة، بحث التصوف وأثره على الفهم الإسلامي، جامعة حلوان، مجلة العمارة والفنون، العدد السابع (٢٠١٧).

(٢) https://alantologia.com/blogs/44947/.

(٣) مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي- فرح حطاب، حرية الذات ومفهوم السعادة المطلقة في نظرية المعرفة الصوفية عند الغزالي.

(٤) مايكل إرجايل : سيكولوجية السعادة، ص٢٥و ص٤٥.

الداخلية والشعور بالرضا الداخلي.

المعنى الاجتماعي في السعادة يتضح في ترابط السعادة الفردية بالسعادة العمومية بحيث ينبغي التمييز بين الإشباع وهو فردي مخصوص وكذا اللذة وإرضاء الرغبة من جهة، والسعادة وهي جماعية عمومية مداخلها اجتماعية عبر التاريخ، تصنع أسبابها وتحصيلها في السياسات التي تدير المجموعة وتدير أسس العيش المشترك[1].

والمعنى الآخر عبر عنه الفارابي بقوله: «أن السعادة تظهر في الجماعة وليس في الفرد»، حيث اعتبر أن السياسة هي جوهر الفلسفة وغاية المرام من الفعل السياسي عنده هي السعادة، كما يراها في المدينة الفاضلة، التي تقوم على المعرفة، والمعرفة تحقق سعادة الأمة وليس سعادة الفرد، وتتجلى السعادة عنده بالفضائل الأربعة: الفضائل النظرية والفضائل الفكرية، والفضائل الخلقية، والفضائل العملية، وهذا ما تضمنه كتاب تحصيل السعادة الموّجه إلى عامة الناس[2].

إن ظهور معنى السعادة في الحياة الجماعية واضح أشد الوضوح، ولذلك لا يشعر الأطفال بالسعادة إلاّ من خلال اللعب المشترك، ومن أكثر عوامل التعاسة أن يصبح المرء معزولاً في مجتمعه ومن أشد أنواع القلق التي تصيب الكبار الشعور بالعزلة وفقدان الصحبة والخلان.

بل إن عقوبة السجن المتفق عليها عالمياً تتمثل بحرمان الشخص من العيش بين أهله ومجتمعه، ومن أشد العقوبات في السجن العزل في زنزانة منفردة.

رابعاً : مفهوم السعادة في الإسلام

لا شك أن هناك نقاطاً مشتركة بين رؤية الفقه الإسلامي والمذاهب الفلسفية الأخرى، لكن سوف نقف على بعض نقاط الاختلاف الجوهرية في المفهوم والفلسفة ومسالك العمل والتطبيق.

ورد لفظ السعادة في القرآن الكريم في عدة مواضع :

قال تعالى : ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ (هود: ١٠٨).

فالذين يحظون بالفوز في الآخرة ويدخلون الجنة يشعرون بقمة السعادة، وقال تعالى : ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ (هود: ١٠٥).

فالناس يوم القيامة فريقان : أشقياء وسعداء بحسب إيمانهم وأعمالهم وما قدموا في دنياهم، وما يترتب على ذلك من جزاء أخروي.

وقال تعالى : ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ (طه: ١-٢).

والشقاء هنا نقيض السعادة وهذا يعني أن الله تعالى لم يقصد الحاق الشقاء بالرسول

(١) مجلة الأهرام الديمقراطية -ملف العدد- السعادة، ابتسار الإفادة في علم اجتماع السعادة.

(٢) https://platform.almanhal.com/Files/2/125123.

والمؤمنيـن معه من خلال هذا القـرآن، وإنما أراد إسعادهم في الدنيا والآخرة، وأراد لهم الراحة والطمأنينـة والتقرب إلـى الله والأنس بمناجاته وذكـره وليستقيموا على أمره فـي الدنيا ويفوزوا بجنته في الآخرة.

مـن خـلال النظر في الآيـات القرآنية التي مست السعـادة الإنسانية نجـد أن بعضها تناول اللـذات المادية مثل الطعام والشراب، مثل قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الواقعـة:٢٠-٢١)، وذكـر ما يوعـد المؤمنون في الجنة من أنهـار من لبن وعسل مصفـى، وذكـر عن العين التي يطلـق عليها تسنيم في قوله تعالـى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (المطففين: ٢٧-٢٨).

كمـا أن بعض الآيات ذكرت نعمة الأمن بالإضافـة إلى نعمة الغذاء والقوت مـثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ (قريش:٤).

وهنـاك آيات ذكرت الجنـان المزروعة بالنخيل والأعناب والأنهـار المتفجرة وذكرت بعض الآيات الأزواج المطهرة مـن الحور العين، والخدمة المميزة والراحة والمناظر الجميلة والجلوس على الأسرة المتقابلة.

وهنـاك آيات ذكـرت الطمأنينة النفسيـة وراحة القلب والضمير مثـل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (الفجـر:٢٧) وقولـه تعالـى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ (الحجـر:٤٧)، بمعنى أن جانباً من الآيات تتحدث عـن السعادة المتمثلة بالإحساس بالرضـا والشعور بالسكينـة والاطمئنان النفسي، والصدور الصافية مـن الغل والحقد والكراهية والحسد والبعد عن الإحساس بالندم القاتل.

وهنـاك آيات دعت إلى ذهاب الحزن والحسرة مثـل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ (فاطـر: ٨) وقولـه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ (آل عمران: ١٧٦) وقـوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

وهـذا يقودنـا في البحث عـن مفهوم السعادة الكاملـة التي لا تقتصر علـى إشباع الشهوات والغرائـز رغـم أهميتهـا فقـال تعالـى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (محمـد: ١٢)، وفي هـذه الآية إشارة عميقـة وتوجيه واضح للعقلاء وأصحـاب الألباب أن يبحثـوا عن السعادة المكتملة التي تجمـع الأبعاد المادية والمعنوية والدنيويـة والأخروية والعقلية والوجدانية والروحية في آن واحد.

والبعـد الآخر الـذي يظهر في التوجيهات القرآنية في هذا السيـاق هو البعد الجماعي، مما يدل دلالة واضحة بأن السعادة لا تكتمل إلّا في الإطار الجماعي، فقد يجد الإنسان جميع احتياجاته ولكنـه يجد نفسه منبـوذاً في مجتمعه، ويشعـر بالاحتقار والازدراء وعدم التقبـل، فهذا لن يشعر بالسعادة.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (الحجر: ٤٧)، ومعنى متقابلين كناية عن الأنس والمتعة المشتركة، حيث ينظر بعضهم إلى بعض ويتبادلون التحية ويستأنسون بالحديث فيما بينهم.

وقال أيضاً: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (سورة الزمر: ٧٣).

وفي موضع آخر: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ (سورة مريم: ٨٥).

ويطلق الوفد في اللغة على الجمع من الأخيار، الذين يفدون على غيرهم لأمر من الأمور الهامة، ولذلك إطلاق الوفد يدل على الأهمية ويدل على موضع التكريم والحفاوة، وقيل الوفد الركب، أي أنهم على ركائب وليسوا مشاة[١]، كناية عن التكريم الذي يدل على السعادة الجماعية.

بينما في موضع الحساب والمقاضاة يقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ (مريم: ٩٥)، الحساب الفردي مصحوب بالوحشة والوجل وفقدان السند أمام الله.

كما ورد لفظ السعادة في أحاديث الرسول ﷺ:

قال رسول الله ﷺ: من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقوة ابن آدم ثلاثة، من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء[٢].

أشار الحديث إلى أهم أسباب السعادة المتوافرة في المسكن والأسرة والركوبة التي تلازمه في الحياة ولا يستغني عنها.

قال رسول الله ﷺ: من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا[٣].

يبين الحديث أصول السعادة في الدنيا ثلاثة:

الإحساس بالأمن على النفس والعرض.

التمتع بسلامة الجسد وعافية البدن.

توافر الغذاء والقوت ومقومات الحياة.

ويرى أبو حامد الغزالي السعادة في لذة القلب باعتبار القلب هو محل الاعتبار والقرار في الإنسان وهو ما يميزه عن بقية المخلوقات.

إن الإشارات التي وردت في القرآن والسنة تشكل هادياً نحو استكشاف مفهوم السعادة،

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص ١٥٢.

(٢) رواه أحمد في مسند باقي العشرة المبشرين بالجنة، مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص، حديث رقم ١٤٤٥.

(٣) رواه الترمذي في أبواب الزهد، حديث رقم ٢٣٤٦.

ولذلك كان هناك عدة اجتهادات تقترب من تلك المعاني التي ذكرها الآخرون بوجه من الوجوه.

فقال : سعادة الإنسان في لذة القلب، ولذة القلب خاصة بمعرفة الله، وكما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر[١].

فخلاصة السعادة عند الغزالي بالمعرفة أي بما يحصله المرء من معارف وعلوم نافعة.

أما الفارابي فيذهب إلى أن السعادة تظهر في الجماعة وليس في الفرد من خلال الفضائل الجماعية التي تتجلى عنده في المدينة الفاضلة وخلال السياسة وهي الرضا التام بما تناله النفس من الخير[٢].

أما السعادة عند ابن رشد فإنها قمة المطلوب الإنساني فهي: الخير الأقصى، وتمام الخيرات جميعاً، وأن تطلب لذاتها لا لشيء آخر[٣].

ويرى أن الإنسان يستطيع تحصيل السعادة إذا تمكن من تغليب العقل والفكر على الأهواء والشهوات، وعندما يصل إلى الحقيقة البرهانية اليقينية الصادقة.

ولذلك فالسعادة العقلية أفضل مرتبة من السعادة الحسية والجسدية المرتبطة بإشباع غرائز النفس وشهوات الانفعال وهنا يلتفت ابن رشد إلى معنى السعادة الحقيقية التي ترتبط بالعقل والفهم وليس بالغرائز.

ويرى ابن القيم السعادة في ثلاثة أشكال[٤] :

الأولى : سعادة ظاهرة خارجة عن ذات الإنسان، ويقصد بها سعادة المال والجاه والثراء والمكانة، وهي مستعارة وتذهب السعادة بذهابها وتزول بزوالها.

الثانية : سعادة متصلة بجسم الإنسان وبدنه، مثل الصحة واعتدال المزاج وجمال الخلقة وسلامة الأعضاء وهي معرضة للتغيير والزوال فهي ليست مستمرة.

الثالثة : سعادة باطنة وهي سعادة نفسية روحية قلبية، وتتحصل بالعلم النافع، والجد والاجتهاد في الطلب وهي سعادة حقيقية باقية مع الإنسان حتى الموت.

وقال ابن تيمية : الإيمان بالله هو جماع السعادة وأصلها[٥] ، ولذلك يجزم ابن القيم بأن السعادة لا تتحقق بالمال، ولا بالجاه ولا بالمواقع والمناصب ولا باللهو ولا باللعب ولا بالنكاح، ولا تتحقق إلّا بطريق الإقبال على الله وإيثار مرضاته على كل شيء، قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾

(١) الغزالي: كيمياء السعادة ص ١٤٠.

(٢) مهدي الهام ، السعادة بين الفارابي وابن رشد، رسالة ماجستير بإشراف- زروخي الدراجي ، ص:٢٩.

(٣) مهدي الهام ، السعادة بين الفارابي وابن رشد، رسالة ماجستير بإشراف- زروخي الدراجي ، ص٢٨.

(٤) ابن القيم، مفتاح دار السعادة ص ١٠٧.

(٥) ابن تيمية، الفتاوى ج٢٠ ص ١٩٣.

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ (طه:١٢٣-١٢٤).

من خلال استقراء آراء العلماء المسلمين على اختلاف مدارسهم ومذاهبهم في مختلف الأزمان يجمعون على أن السعادة الحقيقية تتحقق بلذة المعرفة، وأصل المعرفة ورأسها معرفة الله التي تقتضي تمام السير على الصراط المستقيم الذي يحقق سعادة الدارين.

وحتى نستطيع الوقوف على معنى السعادة في الفقه الإسلامي لا بد من الإشارة إلى الأبعاد الشاملة لمفهوم السعادة من خلال مجموعة من الوجوه :-

ومن أجل الاختصار نود أن يتم الاقتصار في تحديد معنى السعادة على بعض الجوانب المهمة التي تشكل مفهوم السعادة بشكل شامل وإجمالي :

أولاً : البعد الفردي والبعد الجماعي:

فالفقه الإسلامي يقوم على التوازن بين هذين البعدين، بما يجعلهما متكاملين وليسا متناقضين، بمعنى أن هناك قواعد وأحكام تتعلق بالفرد بعينه، بما أطلق عليه الواجبات والتوجيهات العينية والعبادة الفردية الذي يطلب من الفرد القيام به بشكل فردي ولا ينوب عنه الآخرون ولا يسقط عنه إلّا بأدائه بنفسه، مثل الصلاة والصوم وأعمال الطهارة وإعالة الذات والتخلق بالأخلاق الحسنة والعناية بتزكية النفس وغير ذلك.

وهناك قواعد وأحكام وآداب وتوجيهات تتعلق بالجماعة والمجتمع، بمعنى أنها واجبات ومطالب جماعية، تؤدى بشكل مجتمعي لأنها ملقاة على عاتق المجتمع، فلا بد من التعاون والتكامل من أجل أدائها، وهذه يطلق عليها الواجبات الكفائية والعبادات الجماعية، مثل الزكاة والتكافل الاجتماعي، والجهاد وحماية الدولة، وصيانة الحق العام وحفظ الموارد العامة، وتكامل الأدوار وغير ذلك ، قال تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢) ، فاذا اجتمع الالتزام الفردي مع الالتزام الجماعي تصبح الطريق سالكة نحو تحقيق السعادة المطلوبة.

ثانياً : البعد الدنيوي والبعد الأخروي:[1]

العقيدة الإسلامية تقرر أن الحياة الحقيقية طويلة وممتدة و ليست مقتصرة على الحياة الدنيا التي نعيشها كما يعتقد الماديون، وإنما هي مقدمة لحياة أخرى طويلة أبدية في الآخرة، ولذلك جاءت الأحكام والأوامر والنواهي لتنظيم الحياتين معاً بشكل متناسق ومتكامل، ويترتب على ذلك أن السعادة متعلقة بهما معاً وتكتمل من خلال إتمام متطلبات الحياة الدنيوية والأخروية امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن

(١) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ص ٤٦٠.

كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ (سورة القصص: ٧٧).

ولذلك يقول ابن رشد : اتفاق الأدلة الشرعية والبراهين العقلية على إقرار السعادة الدنيوية والأخروية[١].

والسعادة من الكلمات الجامعة للخيرات، المشعرة في الدنيا بالسعة وفي الآخرة بعلو الدرجات[٢].

ومما يجدر ذكره في هذا السياق أنه لا تعارض بين تحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، بل هما متكاملتان ، وتقومان على أصل الإيمان وحسن الاستقامة على الصراط السوي.

قال تعالى : ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (الأعراف: ٣٢).

ومن الغريب جداً ما ذهب إليه أحد الباحثين في موضوع السعادة عندما قال : وازدادت القضية غموضاً بعد أن أصبحت اللغة الأدبية بداء من الفترة الإسلامية معبرة عن الأفكار الدينية التي تربط حالة السعادة بالحياة الآخرة بينما الحياة الدنيا عابرة، ولا يهم كيف يقضي الإنسان أيامه[٣].

ثالثاً : البعد العقلي والبعد العاطفي والزينة والملذات المشروعة :

الأمر الآخر الذي يجب الالتفات إليه هو الموازنة بين العقل والعاطفة بمعنى لا بد من الاستناد إلى دور العقل في تحديد الرؤية للحياة من خلال الفكر والعلم والمعرفة، وسداد الرؤية والمقارنة بين الأشياء والموازنة بين الأمور من جانب، ومن جانب آخر لابد من مراعاة الأمور النفسية والوجدانية والعاطفية التي تعد جانباً مهماً من جوانب التعامل مع الحياة ومع الآخر، من الوالدين والأبناء والأرحام وذوي القربى والأصدقاء بما ينطوي عليه من حب وود وراحة نفسية وتقارب وجداني وتشابه نفسي، ويظهر ذلك بوضوح من خلال الخطاب القرآني الذي يتوجه إلى العقل والوجدان في آن واحد، ومراعاة حظوظ النفس والغرائز البشرية، مع تحكيم العقل والمنطق والنظر في العواقب دون إهمال الغرائز المركوزة بالنفس البشرية وضرورة اشباعها ضمن حدود الشرع والعقل.

رابعاً : البعد المادي والبعد الروحي (المعنوي) :

كما أن الإسلام أقام توازناً جلياً بين البعدين المادي والمعنوي للحياة، فهناك حاجات مادية للجسد لا بد من إشباعها وتحقيقها مثل الغذاء والشراب والصحة والسكن والمتعة الجنسية

(١) مهدي الهام ، السعادة بين الفارابي وابن رشد، رسالة ماجستير بإشراف- زروخي الدراجي ، ص:٢٩.
(٢) السفاريني، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ج١ص٣٥١.
(٣) العجمي: خطاب السعادة ؛ المصادر والآليات والتداخلات ص٢٤.

والراحة البدنية وهناك أيضاً جانب آخر لا يقل مكانة عن الأمور السابقة المتمثلة بالكرامة والإحساس بالاحترام والتقدير وما يتعلق بمنظومة القيم النبيلة التي تجعل للإنسان مكانة جيدة في محيطه الاجتماعي، وقد لخص الأصفهاني ذلك بقوله:

ثم السعادة الدنيوية ثلاثة أضرب: سعادة نفسية وبدنية وخارجية، كذلك الشقاوة على هذه الأضرب[1].

وبعد استجلاء هذه الأبعاد والوجوه المختلفة نذهب إلى تعريف السعادة على نحو يشملها جميعاً ولا يقتصر على وجه دون وجه، ولا ينحصر بجانب على حساب الجوانب الأخرى، بمعنى أن السعادة تشمل الفرد والمجتمع، وتشمل الدنيا والآخرة وتشمل العقل والنفس ولا تغفل الجوانب المادية والمعنوية كذلك.

التعريف المختار

بعد هذه الجولة الواسعة لدى علماء النفس والاجتماع والفلاسفة والوقوف على الأبعاد المتعلقة بهذا المفهوم، يمكن أن تختار تعريفاً معاصراً يتسم بالشمول على النحو الآتي :

السعادة : هي الشعور بالرضا والغبطة القائمة على معرفة الله ، وتزكية النفس بالفضائل، والتمتع بالأمن والحرية والكفاية وامتلاك القوة على التغيير والتجديد والسير على طريق الحق في مجتمع متراحم تسوده العدالة .

ولعل أحسن تعبير عن السعادة هو «الحياة الطيبة» الوارد في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧).

ومما يؤكد ذلك أن بعض علماء النفس الإيجابي أن السعادة Happiness ، والحياة الشخصية الطيبة SWB being – well Subjective مصطلحان مترادفان[2].

وهذه السعادة تظهر في وجوه وتصرفات السعداء؛ «لأن ما يحصل في النفس من الانفعالات يظهر أثره، كما يقول ابن عاشور[3]، قال تعالى في وصف المؤمنين يوم القيامة: ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (المطففين: ٢٤). أي أن سعادتهم أكسبتهم نضرة في وجوههم».

بعض مشتملات التعريف:

السعادة حتى لا تكون زائفة ولا عارضة فهي مستمدة من المعرفة ورأس المعرفة معرفة الله.

السعادة لا تتم ولا تكتمل إلّا بتزكية النفس، والجمع بين العقل والوجدان.

---

(١) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ص ٤٦٠.

(٢) أحمد محمد عبد الخالق، سليمة حموده، فارس زين العابدين، السعادة وارتباطها بالحياة الطيبة والتدين لدى عينة من طلبة الجامعة في الجزائر، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد ٣١ ديسمبر ٢٠١٧،ص٢٣٥.

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنويرج٢٩ ص ٣٥٣.

المضامين الرئيسية للسعادة حرية وقوة وإرادة وتمكين وكفاية.

السعادة تكون بحمل رسالة التجديد والتغيير والإصلاح.

السعادة فردية وجماعية في الوقت نفسه.

فالسعادة إشباع نفسي وعاطفي ومعرفي وارتواء مادي ومعنوي وتمكين فردي وجماعي وعمل رسالي قيمي نبيل.

المبحث الثاني

السعادة ومقاصد الشريعة

المطلب الأول: تعرف مقاصد الشريعة :

عـرف العلماء المعاصرون المقاصد بعدة تعريفـات كلها تدور حول ذات المعنى فقد عرفها ابن عاشور بقوله:

مقاصـد الشريعة العامة هي المعاني والحكـم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة[١].

وعرفهـا علال الفاسي بقوله: المراد بمقاصد الشريعـة: الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها[٢].

وقـد جمـع الزحيلي بيـن التعريفين فقـال: هي المعانـي والأهـداف الملحوظـة للشرع في جميـع أحكامـه أو معظمها، أو الغاية من الشريعة والأسرار التـي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها[٣].

وقـد ثبت بالاستقـراء أن المقصد العـام للشريعة بكلياتها وجزئياتها هـو مصلحة الإنسان بجلـب نفعه ودفع الضر عنه، أي بجلب المنافع ودفع المفاسد، وفي هذا يقول الشاطبي: والمعتمد إنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد[٤].

ويقول العز بن عبد السلام:

مـن تتبع مقاصد الشرع من جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقادٌ أو عرفـانٌ بأن هذه مصلحةٌ لا يجوز إهمالهـا، و أن هذه مفسدةٌ لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماعٌ ولا نـصٌ ولا قياسٌ خاصٌ فإن فهم نفْس الشرع يوجب ذلك[٥].

---

(١) ابن عاشور ، مقاصد الشريعة ص.

(٢) علال الفاسي: مقاصد الشريعة ومكارمها، ص٧.

(٣) الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي، ج٢ ص١٠١٧.

(٤) الشاطبي: الموافقات، ج٢ ص١٢.

(٥) العز بن عبد السلام: قواعد الأحكام،ج٢،ص١٦٠.

وفي هذا السياق فإن المقصد الأسمى لرسالة الإسلام ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

ويقول ابن القيم : إن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكم ومصالح العباد في المعاش والميعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها[١].

المطلب الثاني: مراتب مقاصد الشريعة

والسؤال هنا بعد شرح مفهوم السعادة وتعريف المقاصد، هل هي من مقاصد الشريعة؟ وللإجابة على هذا السؤال من خلال استعراض مقاصد الشريعة المتفق عليها عند الفقهاء كانت على النحو التالي[٢] :

أولاً : الضرورات، التي تتمثل بما لا تقوم الحياة إلّا بها، وإذا فقدت اختلت الحياة وفسدت، ومن خلال استقراء الفقهاء وجدوها خمسة أمور[٣] :

الدين

النفس

العقل

النسل

المال.

وحفظها يكون من جانب الوجود بما يقيم أركانها ويثبت قواعدها، ومن جانب العدم بما يدرأ عنها الخلل الواقع أو المتوقع فيها كما بين الشاطبي.

ثانياً: الحاجيات وهي كل ما يؤدي إلى رفع الحرج وزوال المشقة عن العباد ويتم التمثيل عليها بالرخص[٤].

ثالثاً: التحسينات : وهي كل ما يليق بالإنسان من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، ويمثل لها بالطهارة وجميل اللباس وأطايب الطعام والرائحة الزكية والترفيه البريء[٥].

يقول ابن عاشور: والمصالح التحسينية هي عندي ما كان بها كمال حال الأمة في نظامها حتى تعيش آمنة مطمئنة، ولها بهجة منظر المجتمع في مرأى بقية الأمم، حتى

(١) ٤٤ ابن القيم: إعلام الموقعين،ج٣،ص١١.

(٢) الجويني: البرهان في أصول الفقه،ج٢ ص٧٩، الشاطبي: الموافقات، ج٢ ص١٦.

(٣) الغزالي:المستصفى،ج١ ص١٧٤، الشاطبي: الموافقات، ج٢ ص١٨.

(٤) الشاطبي: الموافقات، ج٢ ص٢١.

(٥) الشاطبي: الموافقات، ج٢ ص٢١.

تكون الأمة الإسلامية مرغوباً في الاندماج بها أو في التقرب منها[1].

وجاء الترتيب بحسب قوة الأثر في وجود الإنسان وحفظ نفسه وعقله ونسله وماله، ودفع الضرر والفساد عنه في معاشه ومعاده.

لم يتم ذكر السعادة في المقاصد بحسب الاستقراء الذي قام به الجويني والغزالي والشاطبي ومن جاء بعدهم، لكن الأدلة الصريحة من القرآن والسنة تدل بوضوح أن السعادة هي المقصد الأعظم لرسالة النبي محمد ﷺ ولكل التشريعات الإسلامية.

لأنه إذا تحقق للإنسان حفظ دينه ونفسه وعقله ونسله وماله فهذه لعمري سعادة لا تعدلها سعادة، والمجتمعات التي تتحقق فيها تلك المقاصد الضرورية ومكملاتها أسعد المجتمعات وأكثرها بهجة.

وإذا كانت سعادة الإنسان ليست مقتصرة على لذاته المادية ولا هي منحصرة في حياته الدنيا فإن الشريعة جاءت بنظام يكفل له سعادته في الدنيا والآخرة[2]، سعادته في الدنيا بالحياة الطيبة وراحة البال وطمأنينة الوجدان، وبالفوز بالجنان يوم القيامة، وقد لخص البوطي هذا الكلام بقوله:

والإنسان ينتظر السعادة الأخروية سواء المادية منها أو الروحية بنفس الهوى والشهوة التي ينتظر بها السعادة الدنيوية ما دام أنه آمن بالحياة الآخرة إيماناً لا شك فيه[3].

فالسعادة ليست مقصداً مستقلاً منفصلا عن بقية المقاصد بل هي مقصد المقاصد وغاية الغايات، فالشريعة الإسلامية إنما جاءت لتحقيق سعادة الإنسان الدنيوية والأخروية، ولابن مسكويه عبارة بديعة نقلها عن أرسطو طاليس[4] تلخص الموضوع حيث يقول: وأما السعادة فلأنها أمر إلهي وإنما تفعل الأشياء كلها لأجلها فهي كذلك أيضا ممجدة. فعلى هذا الأمر ينبغي أن لا تمدح السعادة لأنها أجلّ من كل مدح بل نمجدها في نفسها وتمدح الأمور كلها بها وبقدر قسطها منها[5].

المطلب الثالث: السعادة مقصد شرعي أصيل

ومن الأدلة على أن السعادة هي مقصد شرعي ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ (طه: ١-٢). لأنه ما كان نفي الشقاء إلّا من أجل تحقيق السعادة واتمامها؛ فالشريعة جاءت للسعادة لا للشقاء.

(١) ابن عاشور، مقاصد الشريعة ص ٣٠٧.

(٢) انظر خصائص المصلحة في الشريعة الإسلامية في ضوابط المصلحة للبوطي ص ٤٤.

(٣) البوطي، ضوابط المصلحة ص ٥٨.

(٤) أرسطو طاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ص٣٤٩.

(٥) ابن مسكويه، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ص ١١٤.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

ولا يكـون الرسول رحمـة إلاّ إذا كانت شريعته وافية بمصالح العبـاد متكفلة بسعادتهم، فلا سعادة مع فوات المصالح[١].

وفـي هـذا يقول النيسابوري: ولا مطلوب أجل من سعادة الدارين فكل من كان وسيلة إلى نيل هذا المطلوب على الوجه الأتم الأكمل كان وجوده رحمة من الله للطالب المتحير وما ذاك إلا خاتم النبيين[٢].

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ (هود: ١٠٨).

فالفـوز بالجنان هـو المقصد الأسنى الذي يسعد إليه كل عاقـل، وهو المقصد الذي جاءت لأجله الشريعة المطهرة.

وقال تعالى : ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴾ (هود: ١٠٥).

فالشقي لمن تنكب الشريعة وأحكامها، والسعيد من استجاب لها وعمل بمقتضاها.

قولـه تعالـى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ (البقـرة: ١٨٥). وكذلك قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴾ (الحج: ٧٨).

فاليسـر ورفع الحرج ما هو إلّا عين السعادة وجوهرهـا، إذ لا سعادة مع الحرج والعنت؛ لأن الحـرج هـو الضيق[٣]، وأصعب أنواعه هـو الضيق الذي يلحق بالنفس قـال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا ﴾، وضيق الصدر مضاد السعادة.

وهنـا يتبادر السؤال حول موقع السعـادة وترتيبها في المقاصد، والحقيقة الماثلة للعيان في هـذا السيـاق، أن السعادة تعد الإطـار الأوسع لكل المقاصد بجميع مراتبهـا، وتدخل فيها جميعاً، بمعنـى أن تحقيق السعادة يقتضي توفير الضرورات المتمثلة بحفظ النفس والعقل والنسل والمال وكذلـك تدخل في مقصد الحاجيات لأن من مقتضيات السعـادة رفع الحرج والمشقة عن العباد، امتثالاً للقاعدة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦). وجاءت التحسينات ليكتمل معنى السعادة، ويصل إلى أعلى مراتبها.

لذلـك وجدنـا أن الأصوليين قرروا أن غاية أصـول الفقه هي الوصول إلـى الحكم الشرعي وغايـة الحكم الشرعـي ومقصده النهائي هو سعـادة الإنسان في الدنيا والآخـرة، وفي هذا يقول

---

(١) البوطي ، ضوابط المصلحة ص ٧٥.

(٢) النيسابوري: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٥ص ٥٨.

(٣) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ص ٤١٠.

الآمـدي: وأما غاية علم الأصول، فالوصول إلى معرفـة الأحكام الشرعية التي هي مناط السعادة الدنيوية والأخروية[١].

وقد اتفق العلماء على أن المشقة ليست مقصداً من مقاصد الشريعة ولا مقصداً من مقاصد العبادة بكل أشكالها ومراتبها[٢]، بل كانت «السماحة أول أوصافها وأكبر مقاصدها» كما يقول ابن عاشور[٣].

أعظـم الأمور خطـراً وقدراً وأعمها نفعاً ورفداً ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة والأولى؛ لأن باستقامة الدين تصح العبادة، وبصلاح الدنيا تتم السعادة[٤].

كما اتفق الفقهاء على أن الشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد ودفع المفاسد عنهم وكل ما يجلب الضرر وهذا هو مضمون السعادة على وجه الإجمال والتفصيل.

وإذا كانت المقاصد في هذا الوجود نوعان مقاصد الشارع ومقاصد المكلف[٥]، فإن السعادة يتطابـق فيها المقصدان، مقصد الشـارع من الشريعة وأحكامها الذي هـو مصلحة الإنسان وهو تحقيـق سعادته الدنيوية والأخرويـة، ومقصد المكلف وغايته الذي هو السعـي نحو تمام السعادة والهناء[٦].

فالسعـادة مقصود قصد الغايات لا قصد الوسائل، وقد بين الفارابي هذا الأمر بشكل دقيق حيث يقول: إن السعادة تؤثر لأجل ذاتها ولا تؤثر في وقت من الأوقات لأجل غيرها، فتبين من ذلك أن السعادة هي آثر الخيرات وأعظمها وأكملها[٧].

ما أحد إلا وهو فازع إلى السعادة يطلبها بجهد ولكن كثيراً ما يخطئُ فيظن ما ليس بسعادة في ذاته أنه سعادة فيغتر بها فيكون كالموصوف[٨] بقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ (النـور: ٣٩). وبقولـه تعالـى: ﴿ مَّثَلُ

(١) الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ج١ص ٧.

(٢) يقول العز بن عبد السلام : وقد علمنا من موارد الشرع ومصادره أن مطلوب الشرع إنما هو مصالح العباد في دينهم ودنياهم، وليست المشقة مصلحة، بل الأمر بما يستلزم المشقة بمثابة أمر الطبيب المريض باستعمال الدواء المر البشع، فإنه ليس غرضه إلا الشفاء. قواعد الأحكام،ج١ ،ص٣٢.

(٣) ابن عاشور ، مقاصد الشريعة، ص ٢٦٨.

(٤) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ١٣.

(٥) يقول الشاطبي: المقاصد التي ينظر فيها قسمان أحدهما يرجع إلى قصد الشارع والآخر يرجع إلى قصد المكلف. الموافقات، ج٢ ص٧.

(٦) يقول الفارابي: إن السعادة هي غاية ما يتشوقها كل إنسان. رسالة التنبيه إلى سبيل السعادة ، تحقيق سحبان خليفات، ص١٧٧.

(٧) يقول الفارابي: إن السعادة هي غاية ما يتشوقها كل إنسان. رسالة التنبيه إلى سبيل السعادة ، تحقيق سحبان خليفات، ص١٧٩.

(٨) الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص ٦٥.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ (إبراهيم: ١٨).

فالنعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متى تم تناولها على ما يجب وكما يجب، ويجري بها على الوجه الذي لأجله خُلق، وذلك أن الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر ما يتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية[١].

ابن خلدون: أنّ الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنّها كلّها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون: ١١٥)، فالمقصود بهم إنّما هو دينهم المفضي بهم إلى السّعادة في آخرتهم.

وتعد السعادة مقصداً شرعياً عظيماً بكل تعريفات السعادة ومفاهيمها وجزئياتها:

فعلى الصعيد المادي تدعو الشريعة إلى تحقيق حد الكفاية للإنسان بتوفير الغذاء والماء لحفظ النفس، وتحريم قتل النفس عدواناً وظلماً، كما تأمر الشريعة بتوفير العلم والمعرفة من أجل حفظ العقل، وتحريم كل ما يغيب العقل ويقلل من دوره، كما تأمر الشريعة بحفظ النسل وامتداد الذرية من خلال الزواج وإقامة مؤسسة الأسرة لحفظه ورعايته، كما تأمر بحفظ المال وكسبه بالحلال وإنفاقه بالحلال.

وعلى الصعيد المعنوي تأمر الشريعة بتحقيق العدل ونفي الظلم وحفظ كرامة الآدمي وحريته وإطلاق إرادته، وتحريم إهانته وسبه وشتمه وقذفه وغيبته وتحريم السخرية منه والحط من قدره، وتأمر بالرفق والتواضع والتسامح والتعاون والتكافل، يقول أبو حيان التوحيدي: السعادة مربوطة بأمرين: التعظيم لله والشفقة على خلقه[٢].

كما ترتقي الشريعة بأوامرها ووصاياها لتحقيق معاني الجمال[٣] الذي يضفي على الحياة رونقاً وبهاءً ورفعة، مثل الأمر بالنظافة والطهارة وأخذ الزينة وجمال المظهر إلى جانب جمال المخبر والجوهر[٤]، من أجل اكتمال السعادة بكل معانيها[٥].

كما يتحقق مقصد السعادة على صعيد الفرد وعلى صعيد الجماعة أيضاً، من خلال التعارف

---

(١) الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص ٦٥.

(٢) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير ج٩ ص ٢٨٦.

(٣) وقد وردت آيات عديدة تبين أن للمخلوقات كما بين الرازي مقاصد أساسية كالأكل والشرب والإبصار وغيرها ومقاصد تبعية كالزينة والجمال، فالجمال والزينة من المقاصد التبعية التي تدل على أهمية الزينة وأثرها النفسي على الإنسان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ النحل: ٨، وقال تعالى واصفاً الإبل بعد أن بين فوائدها الضرورية: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ النحل: ٦، فالبعد الجمالي معتبر كالبعد الضروري.

(٤) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ الأعراف: ٣١.

(٥) يقول الرازي: إن الأمور التي أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والأول للحاجة والثاني للزينة. الموافقات، ج٢ ص٢١.

والتعاون والنفقات والصدقات وتحقيق التكامل الاجتماعي بلا منّة، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأن الشريعة تحقق السعادة كما وردت عند علماء النفس والاجتماع وعند الفلاسفة وأصحاب المنهج العقلي، وكذلك عند أهل الإيمان ومعرفة الله.

ويتجلى مقصد السعادة للإنسان بصفة الإنسانية أولاً[1]، سواء أكان مؤمناً أو غير مؤمن من خلال الاعتراف ببشريته وآدميته وغرائزه ورغباته المرتكزة في فطرته وأصل خلقته.

فالشريعة لا تصادم الفطرة الإنسانية[2] وما جبلت عليه، بل اعترفت بها وأقرت بوجودها وضرورة إشباعها، ولكن ضمن الضوابط التالية:

أولاً: أن يتم ذلك بطرق صحيحة وسليمة قائمة على العلم والمعرفة، لا يكون فيها اعتداء ولا ظلم ولا حيف، وأن يجتنب الخبائث والمحرمات ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

ثانياً: أن لا ينتج عن اكتسابها الحاق الضرر بالنفس ولا بالآخرين بمعنى أن لا يبني الفرد سعادته على حساب شقاء الآخرين ويتم تلخيص ذلك بالحديث «لا ضرر ولا ضرار[3].

ثالثاً: أن يتم ذلك بلا إسراف ولا تبذير ولا هدر لموارد الطبيعة، وإنما بقدر حاجته وهذا مأخوذ من الآية: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف: ٣١).

وقد قال تعالى في هذا السياق: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

وقد ورد في الحديث عن سيدنا محمد أنه نهى النفر من أصحابه الذين عزم أحدهم على قيام الليل كله وعزم الآخر على صيام الدهر كله، وعزم الآخر على اعتزال النساء أبداً، وأمرهم أن يصلوا ويرقدوا، ويصوموا ويفطروا ونهى عن عدم الزواج فقال لهم: «أَمَا واللَّه إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّه وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي»[4].

المراد أن التكاليف جاءت ميسرة ضمن طاقة الإنسان وقدرته وما شادَ الدين أحد إلّا غلبه، كما جاء في الحديث (إنَّ الدين يسر ولن يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة).٧٤

---

(١) وهذا الذي حمل المفكر السويسري مارسيل بوازار على تأليف كتابه الموسوم بـ «إنسانية الإسلام».

(٢) وقد تحدث عن هذا الموضوع الطاهر بن عاشور تحت عنوان: ابتناء مقاصد الشريعة على وصف الشريعة الإسلامية الأعظم وهو الفطرة. ابن عاشور ، مقاصد الشريعة ص ٢٥٩.

(٣) حديث حسن، رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما مسنداً، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم.ابن رجب: جامع العلوم والحكم، تحقيق الأرناؤوط ص ٢٠٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب الدين يسر وقول النبي ﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة، حديث رقم ٣٩. ٧٤ البخاري : كتاب الإيمان باب الدين يسر ج١ ص ٢٣

فالجمع بين الروايات في العبادات والتكاليف والنظر في مقاصد الشريعة يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الله عز وجل يريد لعباده أن يكونوا سعداء في دنياهم وسعداء في آخرتهم.

والقصة الأكثر وضوحاً ما حدث مع الصحابي (أبي إسرائيل) الذي رآه الرسول ﷺ يقف في الشمس ولا يكلم أحداً، فسأل الرسول: ما بال أبي إسرائيل، قالوا: يا رسول الله نذر أن يقف في الشمس ولا يستظل ولا يجلس ولا يكلم الناس ولا يأكل ولا يشرب، فقال لهم: مروه فليجلس وليستظل وليكلم الناس وليتم صومه، ولا حاجة لله في شقائه.

فشقاء النفس ليس طريقاً لإرضاء الله، والله لم يتعبدنا بالشقاء. ونفي الشقاء يكون إثباتاً للنقيض، ونقيض الشقاء هو السعادة مما يؤكد على أن السعادة مقصداً وغاية مؤكدة بالنصوص والقواعد العامة والمبادىء الراسخة للشريعة.

لذلك يرى الغزالي أن الاعتدال بين قوى النفس المختلفة يؤدي إلى تمام السعادة، إذ يقول: تمام السعادة مبني على ثلاثة أشياء: قوة الغضب، قوة الشهوة، قوة العلم، فيحتاج أن يكون أمرها متوسطاً[1].

وقد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً والعدل سبب النجاة فقط وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة[2].

(١) الغزالي:، كيمياء السعادة ص ١٣٠.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين ج٢ ص ٧٩.

المبحث الثالث

أسباب السعادة وكيفية تحققها من وجهة نظر العلماء المسلمين

بعـد أن وقفنا على مفهوم السعـادة عند العلماء المسلمين، وأنها من مقاصد الشريعة، لا بد من معرفة أسباب وكيفية الحصول عليها عندهم ومن أهمها :-

أولاً: الإيمان بالله تعالى[1] فأول درجات السعادة تتحقق بالتعرف على خالق الكون والإنسان والحيـاة، ويأتي ذلـك تأسيساً على أن الذي خلق الإنسان هو القـادر على معرفة ما يسعده، والذي خلـق الكون والموجودات جميعاً وهيأ أسباب الحياة يعلم تمام العلم العلاقة الطبيعية بين الإنسان والكـون ومـا يحيط به مـن موجودات قـال الله تعالـى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ (طه: ١٢٤).

فـلا سعادة أصلح من العرفـان والإيمان وطاعة الرحمن، ولا شقاوة أقبح من الجهل بالديان والكفر والفسوق والعصيان[2].

يقـول الغزالي: اعلم أن سعادة كل شيء ولذته وراحتـه تكون بمقتضى طبعه، وطبع كل شيء ما خلق له؛ فلذة العين في الصور الحسنة، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة، وكذلك سائر الجوارح بهـذه الصفـة. ولذة القلب خاصة بمعرفـة الجوارح بهذه الصفة. ولذة القلـب خاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى لأنه مخلوق لها[3].

الإيمـان بالله يرشد الإنسان لأن يكون منسجماً مع الكـون ونواميسه وسننه، فلا تصادم ولا تناقض ولا تعارض بينهما، ويؤخذ ذلك من معنى تسخير ما في الكون لخدمة الإنسان.

قـال تعالـى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣).

الإيمـان بالله يشكل بوابة واسعة على جملـة من المفاهيم العديدة والمضامين الكبيرة ذات العلاقة بوجود الإنسان وحياته ودوره في الحياة وما يسعده ويبعد عنه الشقاء.

الإيمـان بالله يجعـل الإنسان ملتزماً بأوامـره ونواهيه التي ما جـاءت إلّا لتحقيق مصلحته. بطواعية ورضى وتسليم قائم على تمام الثقة بعناية الله به.

الإيمـان يمد الإنسـان بالقوة والمكنة على مواجهة مصاعب الحيـاة لأنه يعلم تمام العلم أن الأمر كله بيد خالق الكون والإنسان والحياة.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنويرج٢٩ ص ٣٥٢.

(٢) العز بن عبد السلام: قواعد الأحكام،ج١،ص٨.

(٣) الغزالي، كيمياء السعادة ص ١٤٠.

يقول الغزالي: وإنما السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه والشقاوة في أن تملكه نفسه[1].

الإيمان بالله يرزق الإنسان الوضوح في الإجابة على الأسئلة الكبرى التي تحير الإنسان مثل: من خلقه؟ ولماذا؟ وإلى أين؟ وما هو دوره ؟ فينقذه من دوامة الشك والحيرة والقلق، أي يمنحه الأمن النفسي الذي هو تمام السعادة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢).

الإيمان يشعر الإنسان بالسيادة والتكريم والتفضيل على بقية المخلوقات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

الإيمان يعطي الإنسان الشعور بالمسؤولية ويمنحه حياة ذات قيمة وهدف ورسالة ومعنى ومضمون نبيل ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ (البقرة:٣٠)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

الإيمان يشعر الإنسان بالراحة والطمأنينة في كل ما يواجهه في الحياة بأنه لا يخرج عن قضاء الله وقدره وحكمته وإرادته ومشيئته بعد أخذه بالأسباب فلا تذهب نفسه حسرات على ما فات.

الإيمان يمنح الإنسان الشعور بالأمل الفسيح والتفاؤل والإيجابية والعزيمة المستمدة من وعد الله والإيمان بقدرته وقوته.

ثانياً: العبادة ودوام الصلة بالخالق الكريم

الإيمان بالخالق الكريم للإنسان والحياة والكون، يؤدي قطعاً إلى صلة الإنسان مع خالقه، ليستمد منه العون والتوفيق والسداد والهداية إلى الحق والصواب، ومن أجل شكر الله على نعمه وعطائه ورحمته بخلقه.

إن التوجه لله بالعبادة والطاعة والشكر يشعر الإنسان بالقوة والعزة، وأنه يعيش بحفظ الله وعنايته، مما يصبغ عليه فيضاً من الرضى والأنس وإزالة الخوف، وليس هناك أكثر سعادة للمرء الذي يستند إلى القوة العظمى التي ليس فوقها قوة، وأنه يرجو ويدعو من بيده الأمر كله وهو مقدر الأقدار وبيده القلم والكتاب، ولا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

ومن هنا يأتي فهم قول الله في كتابه: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

(١) الغزالي، إحياء علوم الدين ج٣ص ٨٥.

والعبـادة اسم يطلق على كـل ما يرضي الله من أقوال و أفعـال[1]، والعبادة تعبر عن امتثال العبـد لربـه قولاً وفعـلاً ومقصداً في علاقته مع نفسـه ووالديه وأسرته وأهل بيتـه ومن حوله ومع المجتمع والكون كله، فالعبادة تزكي النفس وتزينها بالفضائل، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨).

لكن ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن الله غني عن عبادة العباد، ولا تزيد في ملكه ولا تنقص، وإنما العبادة في جوهرها لتحقيق مصلحة العباد في الدنيا والآخرة، وأن العبادة تنعكس على المرء قوة وعزة وسكينة وطمأنينة وسعادة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨).

فالعبـادة تزيـد المؤمـن إيماناً فيـزداد يقيناً وتوكـلاً علـى الله فيرفع من سويتـه النفسية والمعنويـة، ويجعلـه قوياً وعزيـزاً مترفعاً عن الدنيـا لا يخاف من أحد سـوى الله، ولا يرجو أحداً غيـر الله، ولا يخضـع لجبروت ولا يضعف أمام سلطان غيـر الله، وهذا من أسس درجات السعادة وأعذبها مذاقاً وأجملها منظراً وأفضلها ثمرة.

ثالثاً: توافر ضرورات الحياة وحاجاتها للفرد التي لا يمكن الاستغناء عنها ولا تقوم الحياة إلّا بها، وتشمل كل ما يقيم وجود الأنفس ويحفظها، من طعام وغذاء وحياة صالحة للشرب وكل ما يرفع الحرج والضيق وكل أشكال العسر في الحصول على الرزق والعمل للأفراد وعائلاتهم، وهذا يقتضي توفير فرص البحث عن الرزق في الأرض وما تنتجه من مختلف أنواع المزروعات والثمار، وكذلـك توفير ما يحتاجه الإنسان من غذاء بالاعتمـاد على الحيوانات وما تنتجه من ألبان ولحوم ومشتقـات غذائية عديدة، وما يتاح للإنسان من الاستفادة مـن عمل يده، وما تقتضيه الحياة من الضرب فـي الأرض والتجارة فيها وإجراء العقود والمعاملات، وهـذا يحتم على الدولة وأصحاب السلطـة العامـة تهيئة البيئة التي تزيد الإنتـاج، ورفع منسوب نصيب الفرد مـن الإنتاج الإجمالي من أجل زيادة الرفاه ومحاربة الفقر والعوز والحرمان ومن أجل ذلك وضعت الشريعة التشريعات العادلـة والقوانيـن الناظمة للحياة الجماعيـة، وضمان الحقوق وعدم الاعتـداء والتعسف، ووضع ضوابـط التعامل مع المال والملكية بطريقة عادلة ومنضبطة وقد توسع الاسلام في هذه السياسة على نحو غير مسبوق من أجل الوقاية من المنازعات حول المال، ومعالجة حدوثها فيما لو وقعت، حتى لا تكون سبباً في تنغيص السعادة لدى الأفراد والمجتمع.

رابعاً: توفير الأمن للفرد والمجتمع[2]

وقـد اعتبـره الماوردي أحـد القواعد الست التي تصلـح بها الحياة الدنيـا، وبصلاح الدنيا

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ج١٠ص ١٤٩.

(٢) يقول الماوردي: قال بعض الحكماء، الأمن أهنأ عيش. أدب الدنيا والدين، ص ١٤٢.

يسعد الإنسان[1].

والمقصود بالأمن هنا بمعناه الشامل، لأن الأمن عبارة عن ناتج منظومة متكاملة تتعلق بسير حياة الأفراد والمجتمعات على مجمل الأصعدة وفي مختلف المجالات، فهناك: الأمن على النفس والعرض والكرامة، والأمن الغذائي، والأمن الصحي، والأمن الفكري والأمن الاجتماعي والاقتصادي.

من أكثر الأسباب تعلقاً بالسعادة وجوداً وعدماً، هو الأمن لأن انعدام الأمن يشكل منغصاً للحياة، ويسهم في انعدام السعادة حتى لو توافرت العوامل الأخرى، وفي هذا يقول الماوردي: ليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة، وقد قال بعض الحكماء، الأمن أهنأ عيش[2].

ويفهم هذا من قول الله عز وجل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٣-٤).

وعلى الدولة وأصحاب السلطة وكل أصحاب المسؤولية العامة بكل درجاتها العمل على إزالة الخوف داخل المجتمعات[3].

ومن أكثر الإشارات وضوحاً إلى أهمية معيار توافر الأمن للأفراد في المجتمع، ما ذكر في الرواية عن الرسول عندما قال: والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون[4].

وكأن الحديث هنا يشير إلى معنى التمام والكمال في استقرار الرسالة الجديدة وسيادتها على الأرض، التي تتمثل بإرساء الأمن في كل الأنحاء حتى البعيدة منها أو في الفيافي والصحارى، بحيث لو سافرت المرأة هذه المسافة الطويلة لوحدها لا تشعر بالخوف ولا تشعر بالتهديد على حياتها وممتلكاتها وتحقيق مبتغاها.

الحديث النبوي القائل: من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا[5].

وكأن الحديث اختصر بثلاث مرتكزات: الأمن الغذائي والأمن الصحي والأمن المجتمعي.

وفي هذا السياق وضع الإسلام نظام عقوبات صارماً وقاطعاً من أجل وضع حد للفوضى، وقطع دابر الفتنة التي تحول دون استقرار المجتمعات وتحقيق أمنها، حيث أن السعادة لا تتحقق

(١) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ١٣٣.

(٢) الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ١٤٢.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٤٠، الجويني:غياث الأمم ص٢٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم ٣٦١٢.

(٥) رواه الترمذي في أبواب الزهد، حديث رقم ٢٣٤٦، وقال عنه: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث مروان بن معاوية.

الاَ بتوفير الأمن الشامل بكل أبعاده.

خامساً: نشر الحريات

من أهم ما يدخل السعادة على النفوس أن تعيش بحرية تامة : حرية اختيار الدين والاعتقاد، حرية الفكر، حرية التعبير، حرية التنقل، حرية العمل، حرية التملك، حرية اختيار الزوج...الخ

إن نشر الحريات يعد من أعلى مؤشرات السعادة، لأنه ليس هناك أشد ضيقاً على النفس من الشعور بالاضطهاد وتقييد الإرادة، وليس هناك أشد مرارة من مرارة الكبت، وعدم قدرة الفرد على وقف الظلم والاعتداء الواقع عليه.

إن الحرية[٦] تعد من أعظم مقاصد الشريعة وأعلاها مرتبة، لأن الحرية من تمام إنسانية الإنسان وكمال آدميته، فالحرية هي جوهر كرامة الآدمي، وهي مرتبطة بالعقل وثمرة التفكير ولذلك أرى أن تكون الحرية إحدى المقاصد الضرورية للشريعة لأنها أهم وأعلى مرتبة من ضرورة المال بكل تأكيد، يقول السرخسي: لما خلق الإنسان لحمل أمانته أكرمه بالعقل والذمة؛ ليكون بها أهلاً لوجوب حقوق الله تعالى عليه ثم أثبت له العصمة والحرية والمالكية؛ ليبقى فيتمكن من أداء ما حمل من الأمانة، ثم هذه الحرية والعصمة والمالكية ثابتة للمرء من حين يولد المميز وغير المميز فيه سواء[٧].

وهذا ما نصت عليه المادة (١) من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء.

وهذه المادة تكاد تكون بذاتها نص عبارة عمر بن الخطاب الخالدة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟

الحرية تسبق الدين، وتسبق السلطة، لأن الدين يقوم على اختيار العقل والقلب ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وإذا انعدمت قدرته على الاختيار يبطل حقيقة الاعتقاد، كما أن السلطة وجدت من أجل حماية الحرية وصيانتها، والحرية منحة من خالق الإنسان، فقد أراده الله حراً من أجل إتمام عملية الابتلاء، واكتمال معنى عدل الله في المحاسبة والجزاء.

هذا يحتم على الدولة وسلطاتها أن تحفظ حريات الأفراد وأن تضع التشريعات والإجراءات الكفيلة بصيانتها وعدم الانتقاص منها.

---

(٦) الحرية في الإسلام ليست منفلتة وإنما منضبطة بضوابط الشرع وقيمه .. فينبغي أن تكون مرتبطة بالغاية التي شرعت من أجلها .. ويجب أن تكون موافقة لمقاصد الشريعة وقواعدها العامة.. وأن لا ينتج عن ممارستها ضرر يلحق بالذات أو بالآخرين.. وأن تكون ضمن حدود العقل والأعراف الصحيحة وملتزمة بالأخلاق والآداب العامة.

(٧) السرخسي: أصول السرخسي ج٢ ص٣٣٤.

سادساً : تسهيل الزواج وبناء الأسر الصالحة

قيام الأسرة على جسور الحب والمودة والرحمة تشكل إحدى طرق السعادة كما يقول القرآن الكريم: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

تشير الآية بوضوح إلى جملة من المواضيع ذات الصلة الوثيقة بالسعادة والعمل على تحقيقها، وأولها: السكينة، وربما تكون طمأنينة النفس وسكينتها وزوال الوحشة عنها من أعظم مظاهر السعادة، وتدل الآية أن الزواج يمثل أحد السبل المؤكدة التي توصل إليها، من خلال الاستجابة إلى الفطرة المركوزة في النفس الإنسانية وحاجاتها الملحة إلى شخص قريب وقريب جداً إلى درجة الانصهار في نفس واحدة، روحاً وجسداً وعقلاً ووجداناً ومشاركة كاملة في الحياة والتعاون على مواجهة مصاعب الحياة.

كما ذكرت الآية المودّة والرحمة، وهما من أكثر ما يجلب السعادة إلى النفس البشرية، حيث جاءت المودّة من الود القائم على صدق العلاقة وطهرها، وإخلاص النفس إلى النفس إلى حد الإيثار والتفضيل على النفس، في ظلال من الرحمة الوارفة الممزوجة بالمتعة واللذة والاحترام والتقدير، وحسن المعاشرة وجمال المصاحبة، حيث يقول تعالى في موطن آخر : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

إن الزواج ينشىء علاقة بين الزوجين ليس لها مثيل ولا شبيه بين أي شخصين آخرين، فهناك علاقة البنوّة والأبوّة والأخوّة والرحم والصداقة والجوار، لكن علاقة الزواج تشملها جميعاً ففيها القرب والحب والرأفة والتعاون والاحترام والمودّة، ولكن في الزواج أشياء أخرى تقويها وتدعمها وترسخها من خلال الانسجام الجسدي والتقارب الروحي والاندماج العاطفي بلا حدود ولا محرمات.

إن الزواج القائم على حسن الاختيار وصدق النوايا، وحسن المعاشرة، وصدق التعاون واتباع أوامر الله في ذلك وتتبع نصائح النبي يمثل أحد سبل السعادة[1] بكل تأكيد فليس هناك أرفع درجة في السعادة من العيش في أسرة مستقرة يسودها الحب والمودة وتغشيها الرحمة والسكينة وتبادل التعاون وتقديم الخدمة بروح إيجابية نقية وطاهرة وصادقة تخلو من الظلم والاستعباد والشك والخيانة والفحش والعدوان.

إن الزواج بوصفه طريقاً للتناسل وامتداد الذرية يشكل مظهراً آخر من مظاهر السعادة، لأن الإنسان الذي حُرم من نعمة الأولاد والذرية يشعر بأنه منقطع منبت، فيدخل إلى قلبه الحزن والأسى بينما يشعر بنعمة البقاء والامتداد من خلال رؤية نسله من بعده.

(١) يقول مايكل إرجايل : إن المتزوجين- بوجه عام - أكثر سعادة من العزاب. سيكولوجية السعادة، ص٢٨.

كمـا أن بناء الأسرة يشكل مشروعاً اجتماعياً واقتصادياً مهماً يحتاج إلى جهد وبذل وتحمل للمسؤولية، لكن هذا العبء وهذه المسؤولية تمنح الإنسان شعوراً بالسعادة من خلال شعوره بتحمل أمانة المسؤولية وإضافة المعنى الرسالي إلى عمله ووجوده في هذه الحياة.

إن كثيـراً مـن الأزواج يشعرون بمزيد من السعادة من خلال إضافـة دائرة أخرى من دوائر التقـارب الأسري، ولذلك نجد أن الأسر تحنو على صهرهم الجديد ويشعرون بالود والاحترام من خلال صلته بابنتهم.

هـذه المعاني لا تتناقض مع قول من يقول أن بعض حالات الزواج تسير نحو الفشل ويسودها الشقـاق والنزاع، لكن هذا يجري على سبيل القلة والنـدرة التي تعد أمراضاً اجتماعية تحتاج إلى عناية ومعالجة.

وما ينبغي علمه يقيناً أن الزواج طريق نحو السعادة إذا تم ذلك بمقاصده وضوابطه وأحكامه وآدابـه، وهذا الأمر يحتاج إلى تربية وتعليـم وتأهيل من قبل مؤسسات الدولة، ومن قبل مؤسسات المجتمـع المختصة، من أجل تحقيق ما يترتب على الزواج مـن سكينة وموّدة وحب ورحمة وتآلف وحسن معاشرة.

وأمـا الأهـل: فنعم العـون على بلوغ السعادة، فمـن كثر أهله وخالصوه، صـار له بهم عيون، وآذان، وأيـد، وقـد قال تعالـى حاكيًا عن لوط[1] عليه السـلام: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ (هود:٨٠).

سابعاً: البحث عن السعادة داخل الذات

المسلـك الصحيـح في البحث عن السعـادة هو أحد أسبابهـا بمعنى أن الإنسـان إذا سلك مسلكـاً خاطئـاً في البحث عن السعادة فلـن يجدها، وربما يكون أحـد المنغصات التي تحول دون تحقيقها وتصبح السعادة بعيدة المنال، ولذلك لا بد للمرء أن يفهم أن السعادة مركوزة في داخله وفي أعماق ذاته، فالسعادة لا توهب ولا تمنح، ولا يتم أخذها من أيدي الآخرين.

إذا عجز الإنسان عن تفجير ينبوع السعادة من داخله، فلن ينعم بها ولا تتحقق له ديمومتها، لأن مـن يمنحهـا يستطيـع منعها، ولذلك لا بـد للإنسان أن يحرصـ على أن يجعل سيـل السعادة متدفقـاً علـى الدوام من أعمـاق ذاته، لا يتحكم به الآخـرون، ولا يعتمد على الظـروف الخارجية المحيطة به.

ويؤثر ذلك أن الإنسان قد يعيش في قصر منيف ويتوافر له كل متطلبات الحياة، ولكنه يعيش الضيق والكبت الذي ينغص عليه عيشته، وتجد في المقابل من يعيش حياة بسيطة، ويحصل لقمة عيشـه بالكفاح والجد والعمل المتواصل، ومع ذلـك يشعر بالحرية والرضا والعزة التي تشكل لديه

(١) الأصفهاني: الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ١١١.

سعادة غامرة.

وفـي هذا السيـاق لا بد للمرء من فهم جوهـر السعادة أولاً، وأن يمتلـك مهارة البحث عنها فـي أعماقـه، وأن يمتلك القدرة علـى التمييز بين العناوين والمعاني التـي تجعله قادراً على تلمس الحقيقـة وسط المظاهـر الزائفة والأمور الشكلية بلا قيمة ولا مضمـون حقيقي، وهذا يحتاج إلى الاستناد إلى معرفة الله والإيمان به وما يتبع ذلك من إرشادات وتوجيهات عامة وخاصة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه:١٣١).

ومن أجل الحصول على السعادة الداخلية لا بد من امتلاك المهارات التالية:

مهارة التفكير العلمي التي تستند إلى المنهج العلمي الرصين القادر على تشخيص المشكلة، ومعرفة البدائل نحو الحل والقدرة على اختيار البديل الأفضل والقرار الصائب الموزون.

امتلاك طريقة تفكير متفائلة، ومحاربة الشعور بالعجز والإحباط، ومقارنة اليأس والقنوط، حيـث اعتبـر الله أن اليأس مـن الكفـر ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧).

تقديم الشكر والعرفان لكل من يستحق الشكر، لكل من يفعل خيراً، ولكل من يحسن التعامل مـع الناس والأشياء، ولكل من يلتزم بالقيم والأعـراف المجتمعية، ولكل من يحترم القانون، ولكل من يحافظ على الحق العام والمصلحة العامة.

التدريـب على التسامـح والتغافر، ونسيـان الإساءة مـن الآخرين وتنظيـف القلب من الغل والحقد والحسد والابتعاد عن خلق الكبت والحقد والغل.

قال تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:٣٤).

يقـول الطبري: ادفع يا محمد بحلمك جهل من جهل عليك، وبعفوك عمن أساء إليك إساءة المسيء ، وبصبرك عليهم مكروه ما تجد منهم ويلقاك من قبلهم [١].

المبـادرة إلـى مساعدة النـاس والمسارعة في تقديـم الخدمة للمحتاجيـن، بمعنى البحث عـن المتعـة والراحة النفسية في تفريج كربات المكروبين وغـوث المنكوبين، والمسح على جراح المكلومين.

هنـاك توافق بين المصلحين والمفكرين على أن سعـادة الإنسان السوي المؤمن تكون على قدر بذله وعطائه، وأن قمة السعادة لديه في جعل الناس سعداء.

لقـد تجلى هذا المعنى في حيـاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان يتصدق بكل

(١) الطبري: الجامع لآي القرآن،ج٢١ص ٤٧١.

مـا يملك، وعندما سـأل عائشة عن الشاة التي تم ذبحها ، قال : ما بقي منها؟ قالت: ما بقي منها إلا كتفها قال: بقي كلها غير كتفها[1]، وهذا ما كان يفعله الصحابة وأهل الخير والصلاح.

وتفيـد بعض الأبحـاث أن العطاء وسيلة لنضـج الإنسان وعنصـر أساسي لـدوام سعادته، والعطاء له صور كثيرة وعديدة ضمن قدرة الإنسان واستطاعته.

فهناك المساعدة عبر إنفاق المال بالزكاة والصدقات.

المساعدة في إنشاء المبادرات والمشاريع التي تحقق النفع للعامة.

تقديم المساعدة بالجهد والسعي في حاجات القوم

إزالة الأذى عن الطريق وإبعاد الضرر عن المرافق العامة.

بـذل الوقـت عبـر الاستماع إلى همـوم الناس وحـل مشاكلهـم ، ومشاركتهم فـي أفراحهم وأحزانهم.

بذل الجهد من أجل الاصلاح بين المتخاصمين.

بذل الجاه من أصحاب المكانة للشفاعة وتحقيق المطالب وتيسير الأمور.

روى البخـاري و مسلـم عـن أبي هريـرة: قال رسـول الله ﷺ: كل سلامى مـن الناس عليه صدقـة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفـع عليهـا متاعه صدقـة، والكلمة الطيبة صدقـة، وكل خطوة يخطوها إلـى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة[2].

ثامناً: التعاون والتكافل الاجتماعي ونشر ثقافة التسامح[3]

مـن أهم أسبـاب السعادة على صعيـد الفرد والمجتمـع، أن يتم إرساء قواعـد التعاون بين الأفـراد على تحقيق المصلحة المجتمعيـة العليا ووضع أسس التكافـل الاجتماعي، ويمكن ترتيب مستويات التضامن المجتمعي على النحو التالي:

على صعيد الأسرة، الحض على التعاون بين الزوج والزوجة، وقيام هذه الرابطة على المحبة والمودة والرحمة، والتعاون على توفير مستلزمات الحياة للأسرة، وجعلها صالحة ومستقرة وذات رسالة.

تعزيـز الروابط بين الفرد ووالديه، قـال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣)، فالآية ترسم لوناً من السعادة البهيجة التي تجعل العلاقة مع الوالدين

(١) رواه الترمذي في أبواب الزهد، حديث رقم ٢٤٧٠، وقال عنه: حديث صحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، حديث رقم ٢٩٨٩.

(٣) يقول ما رتن سليجمان وهو من المختصين بعلم النفس الإيجابي بل هو المؤسس لذلك العلم: ممارسة الخير ليست مجرد متعة بل هي حالة من الإشباع الكامل. السعادة الحقيقية، ص ٢٠.

علاقــة مقدسة وساميــة ومليئة بالحنان والاحتــرام والتقدير والإيثار حيث ربــط الله بر الوالدين بعبادة الله.

تعزيــز روابط الرحــم والقرابة، فقد دعت الشريعــة إلى دوام الصلة مــع الأرحام، وجعلها الله معلقــة بعرش الرحمن، وجاء في الحديث»من أحب أن يبســط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه[1]».

تمتيــن الروابط مع الجــوار، وجعلهم بمرتبة القرابة والأرحام ، مــن حيث التكافل والتعاون والتسامح ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ (النساء: ٢٦).

التكافل على صعيد الحي، بتفقد ذوي الحاجات، والتعاون في تحقيق أمن الحي وحمايته من الضــرر، والعناية بالمرافق العامة من طرق وساحات عامة وحدائق ومدارس ومساجد ، وكل ذلك ينعكــس علــى توافر السعادة الجماعية، «فعمــل الخير ليست مجرد مهمة جافــة، بل هي حالة من الإشبــاع الروحي» كما يقــول سليجمان وهو من المختصين بعلم النفــس الإيجابي بل هو المؤسس لذلك العلم [2].

التكافــل على صعيد الدولة وعلى الصعيــد الإقليمي و العالمي، فقد فرض الله على الأغنياء الزكاة حقاً للفقراء والمساكين وجعل الله ذلك واجباً على الدولة، وذلك من أجل استئصال شأفة الفقــر أولاً، ومن أجــل إزالة الفجوة بين الأثرياء والفقراء في المجتمــع ثانياً ، ونزع عوامل الحقد والكراهية بين مكونات المجتمع، وإزالة التحاسد بين الطبقات من خلال الزكوات ودفع الصدقات.

الحض على تبادل التحيــة ورد السلام ، وتبــادل الهدايا، والحض علــى التسامح ومعالجة الخلافــات بيــن الأسر والجماعــات وبين الأفراد ، قــال رسول الله : «تهادوا تحابــوا[3]»، وقال : لا تدخلــون الجنــة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتــى تحابوا، أولا أدلكم على شــيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم[4].

الأمر بالصــلاح بين المتخاصمين وإزالة كل أسباب الخلاف والشحناء على صعيد الأزواج والأقربــاء، على الصعيدين الفــردي والمجتمعي، فقد رفع الله درجة المصالح بين المتخاصمين، وجعل ذلك باباً للجنة وتحصيل المنزلة الرفيعة بالآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجــرات: ١٠)، وبعــد ذلــك من باب العمل علــى إرساء قواعــد المحبة والسلام والوفــاء والبعــد عن الخصام والتدابر، من أجل الحفاظ على توفيــر سبل السعادة وديمومتها بين أفراد المجتمع.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، حديث رقم ٥٩٨٦.

(٢) سليجمان ، السعادة الحقيقية ص ٢٠.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب قبول الهدية، حديث رقم ٥٩٤.

(٤) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبباً لحصولها، حديث رقم ٩٣.

الحث على الصداقة والرفقة الطيبة، على جميع المستويات الفردية والجماعية وعلى مستوى الشعوب والأمم، فالسعادة تنتقل بالعدوى، كما يقول شراح الحديث: وإن جلساء السعداء سعداء[1].

المبحث الرابع

منغصات السعادة وأسباب زوالها

هناك كثير من التوجيهات التي وردت في القرآن والسنة التي تضمن دوام السعادة وتبعد عن الإنسان المنغصات وكل الأسباب التي تؤدي إلى نقصانها وزوالها ومن أهمها :

كل ما يؤدي إلى الكفر والضلال بعد الإيمان، والكفر بأنعم الله، ولقد ذكر الله ذلك في كتابه بصراحة ووضوح قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢)، هذه الآية تلخص الموضوع كله بهذه الكلمات المعدودة، إذ أن هذه القرية كانت تتمتع بأعلى درجات السعادة القائمة على توفير أركان السعادة، من توافر الغذاء والنعم والشراب، ومن توافر الأمن والطمأنينة، ومن تمام النعمة أن الرزق كان يأتي إليها وليس بحاجة إلى الضرب في الأرض لتحصيله.

لكنها كفرت بالله وكفرت بأنعمه بمعنى أنهم ظنوا أن هذه النعم بجهدهم وفضلهم وعلمهم وقوتهم، وغاب عن أذهانهم أن كل ذلك بيد الله وأقداره وفضله وحده، وبعد هذا الكفر زالت عنهم السعادة وذلك بزوال النعم وحل محلها الجوع، وزوال الأمن والطمأنينة وحل محله الخوف ووصل الجوع والخوف إلى درجة مخالطة الأجساد كاللباس كما يقول الطبري وذلك بدوام الجوع سنوات طويلة، حتى أنهم أكلوا الجيف، والقراد والوبر يعجن بالدم، ولم يعودوا قادرين على رد الغزوات الخارجية التي نزعت أمنهم وحولته جحيماً.

وهناك موطن آخر بالقرآن يصف بعض الحالات الفردية:

فقال عز وجل : ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٥-١٧٦).

فالآية ترسم صورة جماعية للقرية التي كانت آمنة وهنا صورة لحالة فردية، ذلك الشخص الذي انسلخ من آيات الله بعد مجيئها له ليصبح مثل الكلب الذي يديم اللهاث، كناية عن صورة الإنسان الذي يحاول البحث عن السعادة بغير التمسك بحبل الله، فسيبقى يلهث ولم يحصل على شيء.

---

(١) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج٢٢ ص٢٨.

وقـد لخصـ الرازي ذلك كلـه بقوله: كمال السعادة لا يحصل إلاّ بتـرك ما لا ينبغي وفعل ما ينبغي[1].

ب- الفساد والظلم[2]:

مـن أهم أسبـاب زوال النعم الوقوع في الظلـم والبعد عن الإنصاف فـي التعامل مع الناس والموجودات.

والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه[3]، والبعد عن الحق، والاختلال بالعدل وللظلم أنواع كثيرة:

ظلم الشرك بالله ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

ظلم الإنسان لنفسه بالمعاصي والخطايا والذنوب والآثام[4].

ظلم الإنسان لأخيه الإنسان بالعدوان عليه ، وإيذائه بغير حق ، والطعن فيه والافتراء عليه ، والسطو على ماله وعرضه.

ظلـم الحيوانـات وإيذاء المخلوقات بغير حـق، فقد ورد في الحديث: عذبـت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[5].

ومن أنواع الظلم نشر الفساد في الأرض وقطع الأشجار وتلويث المياه والهواء.

إن اقتراف الظلم بكل أنواعه وأشكاله يؤدي إلى نقصان السعادة لدى الأفراد والمجتمعات، ويؤدي إلى الحاق الضرر بالفرد والمجتمع، ويؤدي إلى تقطيع العلاقات، وتحل البغضاء والكراهية محل التفاهم والمودة.

ج- الفسـق والانحـلال وإشاعة المنكرات، فإن من أكثر منغصـات السعادة في المجتمعات انتشـار المعاصي والمجاهرة بها، وظهور علامات الفسق والتفاخر بها، والانحلال الخلقي وإباحة الشذوذ والفواحش .

وقد قص علينا القرآن قصصاً كثيرة عن تاريخ المدن والقرى والممالك التي هلكت بالمعاصي وانتشار المنكرات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ (الفرقان:٤٠).

---

(١) الطبري : جامع البيان ج١٩ص٢٨٠.
الرازي، مفاتيح الغيب ج٢ ص ٢٧٠.

(٢) يقول الأصفهاني: وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي إلى غاية، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل. الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ١٣٩.

(٣) الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ص ٥٣٧.

(٤) يقول الماوردي: من ظلم نفسه فهو لغيره أظلم، ومن جار عليها فهو على غيره أجور. أدب الدنيا والدين، ص ١٣٣.

(٥) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم ٣٤٨٢.

وهـي سدوم قرية قوم لوط التي كان أهلهـا يفعلون المنكرات ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف:٨٠).

وكان جريمتهم المشهورة تتمثل في أمرين:

إتيان الرجال شهوة، مخالفين النظرة السوية ومخالفين سنة الله في الكون.

المجاهرة في المعاصي وشرعنة الشذوذ ومصادمة القيم ، والتواطؤ على ذلك.

فكانـت سببـاً في هلاكهم على النحو الشنيع وأصبحوا مثـلاً سيئاً للبشرية على مدار الزمن إلى يوم القيامة.

كمـا ذكـر الله قـوم شعيب الذيـن كانـوا يمارسـون تطفيـف المكيـال والميـزان وهي من علامـات الظلـم الاجتماعـي الـذي يستحـق العقوبة فـي الدنيا والآخـرة، قـال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (هود: ٨٥).

د- الجهل والطيش والسفه وقلة العلم وضحالة المعرفة وانعدام الحكمة.

العلـم[1] باتفاق العقـلاء يرفع قدر الإنسان ويعلي قيمته الاجتماعيـة ، والعلم يغذي العقل ويـزوده بالحكمة ، ويكسب الإنسان القدرة علـى التعامل الصحيح مع عناصر الوجود ، وأن الجهل هـو نقيض العلم، والجهل يزري بصاحبه وينزل مرتبته، ويـورده موارد الهلاك، ويجعله يعيش في الظلمـات والشقـاء، مما يؤدي إلـى القول أن العدو الأول للسعادة هو الجهـل وهو من أكثر العوامل تاثيراً في هدمها وزوالها.من خلال ما يلي :

الجهـل يخلـق بيئة غير صالحة للإنتـاج مما يجعل المجتمعات تسير نحـو الفقر والوقوع في الكوارث الاقتصادية والاجتماعية.

الطيش يؤدي إلى الضعف والخذلان وعدم القدرة على التصدي للغزاة والمحتلين.

السفـه يلحق الضـرر بمنظومة القيـم التي تشكل المرجعيـة العليا للمجتمع ممـا يؤدي إلى الاختلاف وشيوع الفوضى.

الجهل يؤدي إلى التجمعات الغريزية في المجتمعات البشرية فيجتمعون على التعصب للعرق واللون والجهة ولا ينظرون إلى الفكر و المبادئ.

الطيش يؤدي إلـى الظلم والفساد والأنانية المفرطة مما يؤدي إلى هلاك المجتمعات وزوال الحضارات.

وكل ذلك يعد من أهم أسباب نقصان السعادة وزوالها على صعيد الفرد والجماعة.

(١) يقول الماوردي: أن العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قل معهما المال، وضاقت معهما الحال. أدب الدنيا والدين، ص ٤٦.

هـ - انتشار التجسس والغيبة والنميمة والسخرية والهمز واللمز في المجتمعات .

لقد نهى الله نهياً صريحاً واضحاً في سورة الحجرات عن جملة من الأفعال المشينة والخصال القبيحة التي تلحق الضرر بالمجتمع ، وتؤدي إلى نقصان السعادة في العيش والإقامة، قال تعالى : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ (الحجرات: ١٢).

التجسس هو تتبع العورات والتطفل على الحياة الخاصة للأفراد والعائلات، أما الغيبة فهي ذكر المرء لأخيه بما يكره في حال غيابه، واعتبر القرآن هذا السلوك بغيضاً ويحمل درجة عالية من القبح الاجتماعي ، الذي يدمر العلاقة بين أفراد المجتمع ويؤدي إلى تقطيع أواصر المحبة بين مكوناته، ويؤدي إلى انتشار البغضاء والكراهية، ووصف القرآن لها على هذا النحو يؤدي إلى جعلها جريمة اجتماعية خطيرة تستحق اللوم وتستحق التهديد بالعقوبة في الآخرة.

وهنا يمكن القول أن المجتمع الذي ينتشر فيه هذا السلوك يستحق أن يطلق عليه مجتمع الكراهية ، الذي يقل فيه منسوب السعادة ، ويرتفع فيه منسوب القطيعة وتنافر القلوب.

ومن الأمور المنهي عنها أيضاً النميمة، والنميمة تعرف بأنها عبارة عن إفساد ذات البين من خلال نقل الكلام والحديث من شخص إلى شخص أو من فئة الى فئة.

وقد جاء في الحديث «لا يدخل الجنة قتات[1]» والقتات هو النمام[2]. وقد وصف الله هذا الفعل بأنه قبيح وبشع وخطير يستحق اللوم والتقريع ، عندما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ (القلم:١٠-١٣).

جاء في الطبري :

هماز: مغتاب للناس يأكل لحومهم[3].

مشاء بنميم: يمشي بحديث الناس بعضهم في بعض، و ينقل حديث بعضهم إلى بعض.

ومما هو معروف أن أثر النميمة في إغراء الصدور ونشر الضغينة والفتنة تؤدي إلى الكراهية والخلاف والتدابر والقطيعة، مما يؤدي إلى فقدان السعادة، لأن السعادة لا تجتمع مع القلوب المتنافرة التي تمتلئ غيظاً وحقداً وكراهية، وتنتهي السعادة في مجتمع القطيعة ، لأن السعادة تتغذى على الحب والمودة والتراحم والتسامح والتغافر والتعاون والتكامل بين أفراد المجتمع.

ويلحق بالنميمة أموراً أخرى مثل السخرية واللمز والتنابز بالألقاب .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة، حديث رقم ٦٠٥٦.

(٢) رواه الترمذي في أبواب البر، باب ما جاء في النمام، حديث رقم ٢٠٢٦.

(٣) الطبري، جامع البيان ج٢٣ ص ٥٣٤.

يقـول تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (الحجرات: ١١).

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ (الحجرات:١١)

ومجمل القول في هذا السياق القول أن السخرية واللمز والهمز والتنابز بالألقاب يؤدي إلى التباغض والكراهية وتقطيع الأواصر بين مكونات المجتمع ، وهـذا كله يؤدي إلى تنغيص الحياة ونقصان السعادة بين الأفراد والمجتمعات الإنسانية.

لأن السعـادة تقـوم على الاحتـرام والتقدير المتبـادل ، وتنمـو السعادة بالألفـاظ الحسنة والمعانـي الجميلـة التي تعبر عن رابطة الأخوة في الإيمان والروابـط الإنسانية السامية ، وتنشر المودة والمحبة بالكلمة الطيبة، والخطاب الحضاري الراقي ، وترسيخ منظومة القيم النبيلة .

و - شيوع أخلاق الكبر والخيلاء والتنمر على الضعفاء

من أشد الصفات التي نهى الله عنها هي الكبر والخيلاء وعندما سئل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الكبر قال: بطر الحق وغمط الناس[1].

فقـد جاء فـي القرآن على لسـان لقمان فـي وصيته لابنـه: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ (لقمـان: ١٨) . حيـث إن صفـة الكبـر تمنع المودة وتجفف ينابيع الحب ، وتحول دون التعاون والتسامح والتغافر بين الأفراد والأسر ، وتفكك الأواصر بين شرائح المجتمع مما يؤدي إلى تنغيص الحياة وإعدام السعادة بين الناس .

الخاتمة

في نهاية هذا البحث يمكن الوقوف على أهم النتائج التالية:

أولاً: السعـادة في أكمل صورها بالفقـه الإسلامي هي الشعور بالرضى والغبطة المنبعثة من نفـس الإنسان الزكية بالإيمان والعلم والمعرفة التي ترشـده إلى أحسن الأعمال، وتعطيه الإرادة والقوة الدافعة للعيش الكريم بحرية وأمن وكفاية ، في مجتمع آمن تسوده العدالة والمرحمة .

ثانياً: السعادة مقصد عام أصيل من مقاصد الشريعة المعتبرة ، وتعد مقصد المقاصد كلها وغايتهـا العظمى، وتشكل السعـادة الإطار الجامع لها ، وتظهر في كل مراتب المقاصد الضرورية والحاجية والتحسينية.

ثالثاً: تتحقق السعادة بمجموعة عوامل وأسباب عديدة بدءاً بالإيمان ومروراً بالعلم والمعرفة وصقـل الـذوق وحسن الإعداد والتربية وتحقيـق الأمن والعدالة، وانتهـاءً بإيجاد مجتمع متراحم متعاون يسوده القانون وتحرسه القيم .

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم ١٤٧.

رابعـاً: تتعرض السعـادة للـزوال والتنغيص بالنكوص عن الإيمـان ومصادمـة الفطرة ، والاستغـراق في الظلم والفساد والجهـل ، وارتكاب الفواحش والإساءة إلى الناس، وفقدان القدرة على التعامل مع موجودات الكون بطريقة صحيحة .

خامسـاً: السعادة تتحقـقً من داخل الإنسان وتنبع من ذاتـه أولاً ، ثم من المجتمع المحيط ثانيـاً ، ولهـا أبعاد دنيوية وأخروية، وفردية وجماعية ، وعقليـة ونفسية ، وروحية ومادية في الوقت نفسه.

سادسـاً: يجـب علـى أصحاب السلطـة ورؤساء الـدول والأنظمـة السياسية وكـل أصحاب المسؤولية أن يسعوا سعياً حثيثا من أجل تحقيق سعادة الأفراد وحفظها وصيانتها من المنغصات وأسباب الزوال من خلال التشريعات النافذة التي تضمن دوامها واستمرارها.

قائمة بأهم مراجع البحث:

ابن منظور ، محمد بن مكرم : لسان العرب ، دار صادر المكتبة الوقفية ، ودار المعارف اون لاين

ابن فارس: معجم مقاييس اللغة تحقيق عبد السلام هارون ، دار الجيل بيروت

الأصفهانـي أبو القاسم الراغب : المفردات في غريب القرآن ، تحقيق صفوان عدنان ، دار القلم دمشق.

الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب : القاموس المحيط ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان

العجمي فالح شبيب : خطاب السعادة، كتاب إلكتروني.

الصالـح، صبحـي إبراهيم: دراسات في فقه اللغة، المكتبـة الشاملة، مكتبة عين الجامعة بيروت

أرسطـو طاليس: الأخلاق النيقوماخية نقل إلى العربيـة في القرن الثالث الهجري وشرحه الفيلسوف المسلم ابن رشد المتوفى عام٥٩٥ هجري

الغزالي أبو حامد (٤٥٠ – ٤٩٥) للهجرة : إحياء علوم الدين ، دار المعرفة بيروت، المكتبة الشاملة .

الفارابي، رسالة التنبيه إلى سبيل السعادة ، تحقيق سحبان خليفات ، مكتبة نور.

الأصفهانـي أبـو القاسم الراغـب : الذريعة إلى مكـارم الشريعة، المكتبـة الوقفية، نسخة إلكترونية.

الدائلـي ، زكـي: السعـادة وعلاقتها بنـوع التخصص الدراسـي، مجلة جامعـة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد :٢٨، العدد ٣١، ٢٠٢٠م.

الرباعـي، سعـاد ياسين ، الشعور بالسعـادة و علاقته بالعوامل الخمسـة الكبرى للشخصية لـدى عينة من طلبة جامعة دمشق، رسالة مقدمـة لنيل درجة الماجستير في علم النفس التربوي، جـامعـــة دمشـــق ٢٠١٣م.

يالجن، مقداد: علم الأخلاق الإسلامية
8A_%D8%87%D9%85%D8%A7_%D9%https://mawdoo3.com/%D9
84%D8%B3%D8%B9%D8%A7%D8%AF%D8%A9_%D8%A%%A7%D9
.8A%D8%A9%82%D9%8A%D9%82%D9%84%D8%AD%D9%7%D9

سلامـة، هيام مهـدي، بحث التصـوف وأثره على الفهـم الإسلامي، جامعة حلـوان، مجلة العمارة والفنون، العدد السابع (٢٠١٧)
./https://alantologia.com/blogs/44947

حطـاب، فرح، حريـة الذات ومفهـوم السعادة المطلقة فـي نظرية المعرفـة الصوفية عند الغزالي، مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي.

مايـكل أرجايـل : سيكولوجية السعادة ، ترجمة فيصل عبد القـادر مراجعة شوقي جلال ، نسخة إلكترونية.

السعـادة، ابتسـار الإفـادة في علم اجتمـاع السعادة، مجلـة الأهـرام الديمقراطية – ملف العدد-.
.125123/https://platform.almanhal.com/Files/2

القرطبي محمد بن أحمد : الجامع لأحكام القرآن خرج أحاديثه عرفان حسونة ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.

حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد، مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص، حديث رقم ١٤٤٥.

الترمذي أبو عيسى محمد : الجامع الصحيح (سنن الترمذي) تحقيق محمود نصار ، دار الكتب العلمية، بيروت .

الغزالي حجة الإسلام أبو حامد : كيمياء السعادة. ، تاريخ النشر القرن الثاني عشر ، نقحه محمد عبد الحليم ، وترجمه إبراهيم استنبولي ، دار الفرقد .

مهدي الهام ، السعادة بين الفارابي وابن رشد ، رسالة ماجستير بإشراف- زروخي الدراجي، ص:٢٩.

ابـن القيـم شمس الدين محمد بن أبي بكر ، مفتاح دار السعادة. تحقيق فواز أحمد زمرلي و فاروق الترك ، دار ابن حزم، مكتبة نور نسخة إلكترونية.

ابـن تيمية تقي الدين أبو العباس، الفتاوى تخريج عامر الجزار و أنور الباز دار الوفاء ودار

ابن حزم .

السفاريني محمد بن أحمد، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ج١ ، المكتبة الوقفية

العجمي: خطاب السعادة؛ المصادر والآليات والتداخلات.

عبد الخالق أحمد محمد، سليمة حموده، فارس زين العابدين، السعادة وارتباطها بالحياة الطيبة والتدين لدى عينة من طلبة الجامعة في الجزائر، مجلة العلوم لإنسانية والاجتماعية العدد ٣١ ديسمبر ٢٠١٧

ابن عاشور محمد الطاهر (١٨٧٩-١٩٧٣) تونس : تفسير التحرير والتنوير ، المكتبة الشاملة .

ابن عاشور محمد الطاهر : مقاصد الشريعة الإسلامية، المكتبة الشاملة ، نسخة إلكترونية.

علال الفاسي: مقاصد الشريعة ومكارمها. مكتبة عين الجامعة، نسخة إلكترونية

الزحيلي وهبة : أصول الفقه الإسلامي، ج٢، ط١٩٨٦ دار الفكر للطباعة والنشر ، دمشق.

الشاطبي إبراهيم بن موسى (٧٩٠ للهجرة) غرناطة : الموافقات، ج٢، دار ابن عفان ، المكتبة الشاملة .

العز بن عبد السلام أبو محمد عز الدين الدمشقي ٦٦٠ للهجرة : قواعد الأحكام في مصالح الأنام ، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ودار أم القرى ١٩٩٠ط

ابن القيم: أعلام الموقعين عن رب العالمين،ج٣، دار ابن الجوزي ، مكتبة نور

الجويني أبو المعالي : البرهان في أصول الفقه،ج٢ ، المكتبة الوقفية ، مكتبة نور

الغزالي أبو حامد : المستصفى، في علم أصول الفقه تحقيق محمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ط١ ١٩٩٣

البوطي محمد سعيد رمضان ، ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية مؤسسة الرسلة، المكتبة الوقفية

ابن مسكويه أحمد بن محمد بن يعقوب : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، مكتبة الثقافة الدينية .

النيسابوري نظام الدين القمي : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، تحقيق زكريا عميرات دار الكتب العلمية بيروت .

الآمدي علي بن محمد تعليق: الإحكام في أصول الأحكام ، تعليق عبد الرزاق العفيفي ، المكتب الإسلامي دمشق، بيروت، المكتبة الشاملة.

الأصفهاني الراغب : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، تقديم أسعد السحمراني،

دار النفائس عمان .

أبـو حيـان الغرناطي محمد بـن يوسف : البحر المحيط في التفسيـر تحقيق ماهر حبوش طبعة دار الفكر، الرسالة العالمية

مارسيـل بوازار، إنسانية الإسلام، دار الآداب ترجمة عفيف دمشقية ط٢ الفكر الإسلامي المعاصر الولايات المتحدة.

ابـن ماجـه محمد بن يزيـد القزويني: السنن حقيـق شعيب الأرنـاؤوط الرسالة العلمية، مؤسسة الرسالة.

الدارقطني علي بن عمر المهدي: السنن، المكتبة الشاملة تحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة.

الحاكـم النيسابـوري محمد بن عبد الله : المستدرك علـى الصحيحين ، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار المعرفة بيروت.

ابن رجب زين الدين عبد الرحمن بن أحمد: جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤوط مكتبة نور نسخة إلكترونية.

البخـاري محمـد بـن إسماعيل: الجامع الصحيـح المسند المختصـر المعروف بصحيح البخاري.

الماوردي علي بن محمد بن حبيب : أدب الدنيا والدين، المكتبة الوقفية ، دار اقرأ بيروت

المـاوردي: علي بن محمد بـن حبيب : الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث القاهرة، المكتبة الشاملة والمكتبة الوقفية إلكترونياً.

الجوينـي أبو المعالـي :غياث الأمم في التياث الظلم ، تحقيـق مصطفى حلمي و فؤاد عبد المنعم ، دار الدعوة ، الإسكندرية .

السرخسـي شمـس الأئمـة محمد بـن أبي سهـل الحنفي : أصـول السرخسي، لجنـة إحياء المعارف، حيدر أباد الهند.

مـا رتن سليجمان: السعـادة الحقيقية دار العين ترجمة إلى العربيـة مكتبة نور مسلم، ابن الحجـاج صحيـح مسلم تحقيـق محمد فؤاد عبـد الباقي، مطبعـة عيسى البابي الحلبـي وشركاه القاهرة.

العيني، بدر الدين محمود : عمدة القاري شرح صحيح البخاري إدارة المطابع المنيرية دار الفكر بيروت.

الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي.